الفصل السابع عشر

الأدب

إن اختلاط دم الأمة العربية ونضوب قوة الطبقة العليا فيها ، التي كانت بيدها القيادة ، وبروز الشعوب الشرقية القديمة التي كانت تتألف من أجناس مختلطة ، كل هذه تتجلى أوضح ما تكون في الأدب . فمنذ حوالي عام ٢٠٠ هـ — ٨٠٠ م بدأ الأدب يتحرك بحركات جديدة ، وأصبحت القصيدة التي جرت عادة شعراء العرب القدماء أن يسيروا عليها في التغني بأسمى ما في حياة البداوة من مشاعر شيئاً طويلاً على الجيل الجديد ، وبدت مسرفةً في تصوير الشعور ، وأخذت تفقد ما كانت تتمتع به من تفرد بالسيادة . وعمل أهل المدن ، بعد أن صاروا هم الطبقة الممتازة ، على تأخير القصائد وما كانت تتضمنه من مادة شعر البطولة وكذلك على تأخير اللغة القوية البارعة التي تفيض بالحياة والبطولة إلى المحل الثاني شيئاً فشيئاً ، وأخذت الأساليب البدوية الخشنة تفسح المجال اللينة ، ومال الناس إلى الأوزان القصيرة ميلاً تندهش له .

وأصبح ميل الشعراء إلى أن يبعثوا في النفوس ما يرفعها إلى آفاق الحياة القوية أقلّ من ميلهم إلى أخذ ألباب الناس بمادة جديدة للأدب ، وبمعانٍ دقيقة وعبارات وأخيلةَ جميلة . وتيقظ في الناس ميلٌ إلى الطرائف المستحدثة — وهو أخطر شيء على شعر البطولة بجميع أنواعه — وعاد الأدب مرة أخرى إلى كشف ما يحيط بالإنسان في حاضره ، وأصبح يلذّ له البحث فيما حوله من حياة متشعبة

النواحى ، وإن لم تكن حياة بطولة وروح سامية وبدأ العامة — وخصوصاً عامة المدن غير المتعلمين — يدخلون فى الأدب العربى ، وهم لم يقتصروا على نظم القصائد والحُكْم عليها بنظرهم الخاص وعلى التغنى بها على أوزانهم الشعبية ، بل إن الكلام المرسل أيضاً أصبح عندهم يستعمل فى التعبير عن كل ما جدّ فى الحياة من نواح متنوعة وهكذا نشأ النثر فى الأدب ، بعد أن كان حتى ذلك الحين مقصوراً على العلماء وأهل الدين ، أو على الأكثر على كتب شعبيّة قليلة نُقلت عن الفارسية . ويُحكى عن قوم حوالى عام ٢٥٠ هـ — ٨٦٤ م أنهم فضّلوا الكلام المنثور على المنظوم[1] .

١ — النثر

كان التقدير والإجلال للكلام المنثور : إلى جانب تقدير الشعر ، ذلك التقدير الذى هو مبدأ كل نثر جيد ، أكبر فضيلة للعرب القدماء ؛ وهم قد فاقوا فى ذلك جميع الشعوب ، فكان فى كل قبيلة خطباء إلى جانب الشعراء يساوونهم فى المكانة ، وكانت ملكة الخطابة تعتبر أشبه بملكة خارقة ، حتى نشأ الاعتقاد فى بعض القبائل أنه لا ينشأ فيها خطيب قط إلا مات من قبله[2] .

وكانت ملكة الخطابة تعتبر شيئاً آخر مخالفاً للملكة الشعرية إلى درجة أن المؤرخين يذكرون بالإعجاب من يكون إلى جانب الإحسان فى الشعر مُجيداً فى الرسائل والخطب[3] . وقد بلغ من شدة تقدير الناس للفظ الحسن أنه أصاب

---

(١) مروج الذهب المسعودى ج ٧ ص ٣٤٧ — ٣٤٨ .

(٢) الأغانى ج ١٨ ص ١٧٣ .

(٣) نفس المصدر ج ٢٠ ص ٣٥ ؛ وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ، طبعة بروكلمان ص ٥٤٩ .

أهل مكة سنة ٢٠٨ هـ — ٨٢٣ م سَيْلٌ مات بسببه خلق كثير ، فكتب والى المدينة إلى الخليفة المأمون طالباً عطفه ومعونته لمن جرف السيل أموالهم وهدم بيانهم ؛ فأنفذ إلى أهل مكة أموالا كثيرة ، وكتب مع ذلك كتاباً حسن العبارة ، فكان كتابه « أسرّ إلى أهل مكة من الأموال التى أنفذها إليهم »[1].

وأول صورة تجلى فيها اهتمام الأدباء بما يحيط بهم إقبالهم على دراسة أخلاق العامة ، فمثلاً حوالى ذلك الوقت ألّف أبو عقال الكاتب كتاباً فى أخلاق العوام ، وصف فيه أخلاقهم وشيمهم ومخاطباتهم وسماه الملهى[2] ؛ وكذلك ألف القاضى محمد بن إسحاق الصيمرى ، قاضى صيمر (المتوفى عام ٢٧٥ هـ — ٨٨٨ م) ، كتاب مساوئ العوام وأخبار السِّفْلَة والأغتام[3] .

وكذلك كان وصف حياة المدن من الموضوعات التى أحب الجاحظ معالجتها[4] . وهذا الأديب (المتوفى عام ٢٥٥ هـ — ٨٦٩ م) والذى يُحكى الكثير من الحكايات الطريفة عن دمامة خلقته — كانت عيناه جاحظتين ، وكان حدّه أسود[5] — هو أبو النثر العربى الجديد ويعتبره الثعالبى أوّل كُتّاب النثر[6] .

و كان من عادة الوزير ابن العميد أكبر كتّاب الرسائل الديوانية إذا ورد

---

(١) كتاب المحاسن والمساوئ البيهقى ص ٤٧٥ — ٤٧٦ .

(٢) مروج الذهب ج ٥ ص ٨٨ .

(٣) الإرشاد لياقوت ج ٦ ص ٤٠١ — ٤٠٣ .

(٤) طراز المجالس لشهاب الدين الخفاجى طبعة مصر ١٢٨٤ هـ ص ٦٧ وما بعدها .

(٥) الإرشاد ج ٦ ص ٥٦ .

(٦) يتيمة الدهر ج ٣ ص ٢٣٨ ، وقد سمى الباخرزى الثعالبى بأنه جاحظ نيسابور ؛ ظر مقدمة كتاب الإعجاز والإيجاز للثعالبى طبعة القاهرة ١٨٩٧ م ص ٥ .

حضرته أحد من منتحلى العلم وأراد امتحان عقله سأله عن بغداد ومن الجاحظ[1] ؛ ولذلك دُعى ابن العميد الجاحظ الأخير[2] .

ويحكى عن ثابت بن قرة العالم المشهور أنه قال : ما أحسد هذه الأمة (الإسلامية) إلا على ثلاثة أنفس : أولهم عمر بن الخطاب ، والثانى الحسن البصرى ، والثالث أبو عثمان الجاحظ[3] وقد صنف ، أبو حيان التوحيدى — الذى ربما كان أعظم كُتّاب النثر العربى على الإطلاق — كتاباً فى تقريظ الجاحظ ؛ وبلغ من مزيد اهتمامه بذلك أنه ذكر العلماء الذين كانوا يفضلون الجاحظ وبيّن عِظَم مكانتهم[4] . وبلغ من تقديره للجاحظ أنه كان يسلك مسلكه فى تصانيفه ، ويشتهى أن ينتظم فى سلكه[5] .

وقد كتب الجاحظ فى كل شىء ، من الكتابة فى المعلّمين[6] إلى الكلام عن بنى هاشم[7] ؛ ومن ذكر اللصوص[8] إلى الكلام عن الضّباب ؛ ومن ثَمّ إلى الكلام فى قبائح ما يحكى من كيد النساء .

---

(١) لطائف المعارف للثعالبي طبعة أوروبا ص ١٠٥ ، والإرشاد لياقوت ج ١ ص ٦٨٦ (؟) .

(٢) يتيمة الدهر ج ٣ ص ٣ .

(٣) الإرشاد ج ٦ ص ٦٩ — ٧٠ .

(٤) نفس المصدر ج ـ ص

(٥) نفس المصدر ص ٢٨٠

(٦) المستطرف ج ٢ ص ٢٧٨ — ٢٧٩ طبعة مصر ١٣٠٢ هـ . أما مقدار تأثر الجاحظ فيما كتبه من السخرية بالمعلمين بكتب اليونان الهزلية التى كانت شخصية المعلم من أكبر صورها فهو موضوع البحث ، انظر Reich, Mimus, 1, 443 .

(٧) زهر الآداب للحصرى على هامش العقد الفريد ج ١ ص ٥٦ وما بعدها .

(٨) ذكر التنوخى فى الفرج بعد الشدة (ج ٢ ص ١٠٦) كتاباً للجاحظ يسمى كتاب اللصوص .

وكان أسلوب الجاحظ مستحدثاً لم يستحكم فى التجربة ، وكثيراً ما يشوب طريقته فى الكتابة الثرثرة والاستطراد إلى حد الإملال ؛ ولكن هذا بعينه هو ما كان موضع لذة المعجبين بالجاحظ ؛ وكانوا يشعرون بأنه إنقاذ لهم من طريقة العلماء السائدة إلى ذلك الحين والتى كانت ثقيلة لكثرة ما فيها من الجد و إظهار العلم ؛ وكان المعجبون بالجاحظ يعتبرون الثرثرة الطبيعية الجميلة فناً تعمّد الجاحظ أن يعالجه . وقد قدر المسعودى حوالى عام ٣٣٢ هـ — ٩٤٣ م قدرة الجاحظ على التنسيق ومدَحَ متانة بناء تآليفه بقوله : « وكان إذا تخوّف مَلَلَ القارئ وسآمة السامع خرج من جدّ إلى هزل ، ومن حكمة بليغة إلى نادرة ظريفة » . ويذكر المسعودى كتب الجاحظ فيبدأ بالبيان والتبيين ، ويقول إنه أشرف كتب الجاحظ « لأنه جمع فيه من المنثور والمنظوم ، وغرر الأشعار ، ومُستَحسن الأخبار ، وبليغ الخطب ، مالو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى به[1] . » ويشبه المسعودى المصنف المجيد بأنه حاطب ليل ، لأنه يذكر فى تصنيفه من كل نوع[2] .

ثم إن التصوف الذى جاء حوالى أوائل القرن الثالث الهجرى على أثر اضمحلال الروح العربية ونضوب قوتها ساعد كثيراً على نشر الأدب وجعله شعبياً وعلى نشر الكتب بين الجماهير ، وصبغها بصبغتهم ، وساعد مساعدات كبيرة على تقوية المذهب الواقعى الطبيعى — كما سنرى ذلك أيضاً فى الآداب الأخرى — هذا إلى أن أهل التصوف كانوا يثنون على العلماء وعلمهم ، ويعتمدون فى الغالب

---

(١) المسعودى فى مروج الذهب ج ٨ ص ٣٤ ؛ وقد طال هذا التنويع بين الجد والهزل منسوباً للجاحظ عند مؤرخى الأدب ؛ وقد ذكره كثير من الأدباء . انظر مثلا رسائل الجواربى ص ١٨٢ .

(٢) مروج الذهب مثلا ج ، ص ٢٠

على عامة الناس ؛ وكان هذا التصوف يتجه إلى وعظ العامة وتحليل حياتهم والعناية بحاجاتهم ، وقد تأثر بكلامهم وأساليبهم . وأخيراً فإنه يتضح لنا أنه لولا اضمحلال الطريقة والروح العربية القديمة لما دخل السجع فى البلاغة العربية فى ذلك العصر .

وكان لا يزال فى مأثور العرب قليلٌ من النثر الوثنى المسجوع ؛ وكان المسلمون ينفرون من هـذا السجع نفورَ المسيحيين فى الإمبراطورية الرومانية من الأوزان القديمة الباقية عن اليونان والرومان . ويبين لنا الجاحظ (المتوفى عام ٢٥٥ هـ — ٨٦٨ م) علة كراهية الأسجاع ، فيقول : « وكان الذى كرّه الأسجاع بعينها ، وإن كانت دون الشعر فى التكلف والصنعة أن كُهان العرب الذين كان أكثر أهل الجاهلية يتحاكمون إليهم ، وكانوا يدعون الكهانة ، كانوا يتكهنون ، ويحكمون بالأسجاع ... فلما فوقع النهى فى ذلك لقرب عهدهم بالجاهلية ولبقيتها فيهم وفى صدور كثير منهم ، فلما زالت العلة زال التحريم[1] .

على أن المسيحيين الذين دخلوا فى الإسلام وكان لهم الشأن الأكبر فى ذلك العهد كانوا قد ألفوا استعمال السجع فى مواعظهم الدينية ؛ وكذلك يظهر أنه « حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى دخل السجع عند المسلمين فى الخطب الرسمية ، ونجد كثيراً منه فى كتاب وجّهه الخليفة للمسلمين ، وإن لم يكن كله مسجوعا[2] . »

وكانت طريقة كتابة الرسائل مجالا للتمرين على إظهار صور البلاغة

---

(١) كتاب البيان والتبيين ج ١ ص ١١٣ .

(٢) Goidziher, Abhandlungen Zur arabischen Philologie, 1, S. 65 f.

وأساليبها ؛ ولم يتقدم قط بين الأدباء من لم يأبه الاعتبارات الدينية فى كراهية السجع ، فكان يكتب سجعاً كالسجع العربى القديم الذى كان لا يزال موضع إعجاب : ويحدثنا الجاحظ أن عامة أهل بغداد كانوا يحفظون رسالة إبراهيم ابن سيابة إلى يحيى بن خالد البرمكى[١] ؛ وكان فى هذه الرسالة شىء من السجع .

على أن الرسائل الديوانية كانت هى مقياس العرف اللغوى العام ؛ ونجد وزير الخليفة المأمون حوالى عام ٢٠٠ هـ يكتب كتابة مرسلة لا سجع فيها[٢] ؛ وقد انتهى إلينا لابن ثوابة الكاتب (المتوفى عام ٢٧٧ هـ — ٨٩٠ م) رسالة فيها بعض السجع ؛ وكان هذا الكاتب معروفاً بالتكلف فى كتابته[٣] ؛ وكذلك نجد الكتاب الذى أنشئ للامويين ، وكان يُراد قراءته على جميع المنابر ببغداد سنة ٢٨٤ هـ — ٨٩٧ م ، نثراً مرسلا ، وإن كان لا يخلو من أثر طفيف السجع[٤] . وحوالى هذا الوقت كتب أحد المنشئين فى الديوان من غير سجع[٥] .

على أن السجع قد أصبح حوالى عام ٣٠٠ هـ هو الطريقة الجديدة المستحدثة عند كبراء بغداد ، فنجد الخليفة المقتدر يكتب إلى عمال البلاد سجعاً[٦] ؛ وكذلك

---

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ١١٤ .

(٢) الكندى ص ٤٤٥ — ٤٤٦ ، وفى مواضع كثيرة من كتاب بغداد لطيفور ، ويجد القارئ كتاباً من المعتصم إلى عبد الله بن طاهر ، وهو نثر مرسل لا سجع فيه — انظر رسالة فى الصداقة للتوحيدى ص ٥٤ — ٥٥ من طبعة قسطنطينية .

(٣) الإرشاد ج ٢ ص ٣٧ .

(٤) الطبرى ج ٣ ص ٢١٦٦ وما بعدها .

(٥) الإرشاد لياقوت ج ٦ ص ٤٦٣ . ولكن الرسالة التى يشير إليها المؤلف هنا فيها سجع ، وكاتبها ابن ثوابة نفسه ، والعيب هنا أن المؤلف يعتمد على أمر جزئى بنى عليه قاعدة ؛ وقد فعل هذا كثيراً فى أثناء كتابه . ومما يدل على الاضطراب فى استنتاجاته أن ابن ثوابة كان منشئاً فى ديوان المقتدر ، ويقول المؤلف إن المقتدر كان يكتب إلى عماله سجعاً . (المترجم)

(٦) كتاب الوزراء ص ٢٣٧ وما بعدها .

كان الوزير على بن عيسى يحلى كتبه بالسجع الكثير[١] ؛ ولكن أمر السجع لم يصل فى سائر أجزاء المملكة إلى ما وصل إليه ببغداد ؛ فكانت رسائل الوزير ابن خاقان المسجوعة تقع لدى عمال الولايات موقع الشىء الغريب[٢] ، وكان أصحاب الدواوين فى البلاد يكتبون على الطريقة القديمة من غير سجع[٣] ؛ ثم انتشر السجع . قال ابن خفاجة « من كتّاب المحدثين من كان يستعمل السجع ولا يكاد يخلّ به ، وهو أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابى وأبو الفرج المعروف بالببّغاء ؛ ومنهم من كان يتركه ويتجنبه ، وهو أبو الفضل محمد بن الحسين العميد ؛ وطريقة غير هؤلاء استعماله مرة وتركه أخرى ، بحسب ما يوجد من السهولة والتيسير والإكراه والتكلف[٤] . »

ويحكى عن الوزير ابن عباد ، وزير البويهيين ، أنه كان ولوعا بالسجع إلى حد الإفراط فيه ؛ ويقول التوحيدى عن هذا الوزير : « وكان كلفه بالسجع فى الكلام والقلم عند الجد والهزل يزيد على كلف كل من رأيناه فى هذه البلاد . قلت لابن المسيبى . أين يبلغ ابن عباد فى عشقه السجع ؟ قال : يبلغ به ذلك لو أنه رأى سجعة تنحلّ بموقعها عروة الملك ، ويضطرب بها حبل الدولة ، ويحتاج من أجلها إلى قرم ثقيل وكُلفة صعبة ... لما كان يخف عليه أن يخليها ، بل يأتى بها ويستعملها[٥] . » ويقول نقلا عن ابن العميد إن الصاحب خرج من الرى متوجهاً إلى أصفهان ، فجاوز فى طريقه قرية كالمدينة إلى قرية غامرة وماء ملح ،

---

(١) الإرشاد ج ٦ ص ٢٨٠ ، وكتاب الوزراء ص ٢٧٧ .

(٢) انظر مثلا من سجعه فى كتاب الوزراء ص ٢٧٧ .

(٣) انظر مثلا كتاب صاحب الأخبار إلى بغداد من بلدة الدينور — غريب ص ٣٩ — ٤٠ .

(٤) ابن خفاجة فى مقدمة كتاب الخطب لابن نباتة ص ١٦ .

(٥) الإرشاد ج ٢ ص ٢٩١ .

لا لشيء إلا ليكتب قائلا : كتابى هذا من النوبهار ، يوم السبت نصف النهار[١] ؛ وهذا ما حكاه التوحيدى ، وكان أثلب أهل زمانه ؛ وهو الذى يقول عن ابن عباد أيضاً إنه كان عنده أبو طالب العلوى ، فاستمه غشى بسبب كلام ابن عباد المسجوع ، فرش على وجهه ماء الورد[٢] . وهذا هو شأن السجع إلى اليوم[٣] .

ورسائل القرن الرابع الهجرى هى أدق آية من ازدهار الفن الإسلامى ؛ ومادتها هى أنفس ما عالجته يد الفنان ، وهى اللغة ؛ ولو لم تصل إلينا آيات الفن الجيلة التى صنعتها أيدى الفنانين فى ذلك العهد من الزجاج والمعادن لاستطعنا أن نرى فى هذه الرسائل مبلغ تقدير المسلمين للرشاقة الرقيقة ، وامتلاكهم لناصية البيان فى صورته الصعبة ، وتلاعبهم بذلك تلاعباً ؛ وليس من محض الاتفاق أن كثيراً من الوزراء فى ذلك العهد كانوا من أساتذة البيان وأعلامه ، ولذلك استطاعت رسائلهم أن تنال من التقدير ما جعلها خليقة أن تنشر كتباً للناس . وكان من أولئك الوزراء : الخصيبى ، وابن مقلة[٤] ، والمهلبى[٥] ، وابن العميد ، والصاحب بن عباد ، والإسكافى وزير السامانيين . ويحكى أن الإسكافى كان أكتب الناس فى السلطانيات ، فإذا تعاطى الإخوانيات كان قصير الباع[٦] .

---

(١) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٩٨ .

(٢) الإرشاد ج ٢ ص ٣٠٤ .

(٣) مع شواذ قليلة جداً ، فقد كان وزير مشهور من وزراء المرابطين الأولين يتجنب السجع ، « وكان على طريقة قدماء الكتاب » ؛ انظر المعجب فى أخبار المغرب للمراكشى طبعة مصر ص ١٠٤ .

(٤) رسائل الخوارزمى ص ٣٥ .

(٥) الفهرست ص ١٣٤ .

(٦) يتيمة الدهر ج ٣ ص ١١٩ ، ج ٤ ص ٣١ ، وكتاب الإرشاد ج ٥ ص ٣٣١ .

وهذا يدل على التمييز الدقيق بين نوعى الرسائل . وكانت الرسائل العامة مثل كتب تولية العمال ونحوها تكتب فى ديوان خاص يسمى ديوان الرسائل ، وهو ديوان لم تَخْلُ منه حكومة ما . وقد بلغ من العناية بهذا الديوان أنه قُلِّد ببغداد لإبراهيم بن هلال الصابى (المتوفى عام ٣٨٤ هـ — ٩٩٤ م) ، وكان أكبر المنشئين فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ؛ مع أن الصابى ظل طول حياته يعتنق دين الصابئة ، ويصر عليه ؛ وقد عرضت عليه الوزارة ، إن أسلم ، فأبى[1] . ولما مات ألف نقيبُ العلويين ، مع علو منزلته فى الدين ، قصيدة فى رثاء هذا الذى رفض الإسلام ؛ وهذا يدل على أن قيمة الإنشاء الجيد كانت فى نظارهم أعظم من قيمة صحة العقيدة . وكان الصابى يعرف قدر نفسه ، وهو يقول مفتخراً :

وقد عَلِمَ السلطان أنى أمينُه   وكاتبُه الكافى السديدُ المُوَفَّقُ

فيُمْناىَ يُمْناه ، ولفظى لفظُه ،   وعينى له عين ، بها الدهر يَرْمُقُ

ولى فِقَرٌ تضحى الملوك فقيرة   إليها لدى أحداثها حين تطرق[2]

وتنقسم رسائله كلها قسمين : فى الجزء الأول إجمال الخطاب الذى تُراد الإجابة عنه ، وهذا القسم كان يبيح المجال لإظهار الأدب فى الثناء على المُرْسِل وامتداحه والدعاء له ؛ فمثلا كتب الصابى عن الوزير ابن بقية إلى قاضى القضاة ، فقال فى أول الكتاب : « وصل كتاب قاضى القضاة بالألفاظ التى لو مازجت البحر لأعذ[بته] ، والمعانى التى لو واجهت دجى الليل لأزاحته وأذهبته[3] » ؛ ثم يمضى فى الإجابة عن الكتاب مبتدئاً بقوله : وفهمته ... ولا تزال رسائل الصابى تُقرأ

---

(١) الإشارد ج ١ ص ٣٢٤ .

(٢) رسائل الصابى طبعة بعبدا بلبنان ١٨٩٨ م ص ٨ .

(٣) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٧٧ .

إلى اليوم مع لذة يحس بها القارئ وإعجاب بامتلاك عنان البيان : وهي تُلبس موضوعها ثوباً من جمال الإنشاء القشيب ؛ وحتى لو كان الكاتب يتناول أخباراً عادية رسمية ليس من شأنها أن تناسب ملكة البيان . وكان الصابي يدبّج رسائله بعبارات جميلة مسهبة مسجوعة في أولها وآخرها ، مليئة بضروب المجازات والاستعارات وأنواع الجناس ؛ ومع هذا لا يختفي المعنى بين ضغط الألفاظ ، ولا يطغى عليه جمال الألفاظ وموسيقى السجع ، بحيث يستطيع القارئ أن يفهم المراد من غير تلك المشقة التي يعانيها الإنسان في فهم رسائل من جاء بعده . وحتى لو ترجمت هذه الرسائل ، وجُرِّدت من كل ما تتحلى به ، وعُرضت على صورة تفقدُها الكثير من جمالها ، فإنها لا تزال خليقة بالقراءة . ونذكر من أمثلة الرسائل الديوانية التي كتبها الصابي كتاباً عن عز الدولة إلى ابن عمه عضد الدولة جواباً عن كتاب عضد الدولة الذي أخبره فيه بفتح جبال القفص والبلوص سنة ٣٥٧ هـ — ٩٦٨م :

« ... وصل كتاب سيدى الأمير عضد الدوله أدام الله عزه ! بما سهل الله على يده ويسره بيُمْنه وبركته من فتح جبال القفص والبلوص ، وما بلغه ، أدام الله علوّه ! من أهلها المادين كانوا المدّة ، العادين عن سبيل الله ، حتى استنزلهم عن مَعْقِل بعد معقل ، واستباحهم في موبل بعد موبل ، وقتل حُماتَهم ، وأفنى كُماتَهم ، وأباد خضراءهم وغبراءهم ، وعفى معالم ... ارهم ، وألجأهم إلى الإذعان وطلب الأمان ، وتسليم الرهائن ، والإفراج من الذخائر ، والاستقامة على سواء الدين ، والدخول في عصمة المسلمين ؛ وفهمتُه وحمدت الله على ما منح الأميرَ عضد الدوله ، حمدَ المتحقِّق بما أتاه الله عليه ، المغتبط بما أزلّه إليه ، المشارك له فيما يخصه ، المساهم له فيما يمسّه ؛ ووجدتُ الأثر فيه كبيراً بمؤثره ، والتدبير جليلا

كدبّره ؛ وتلك عادة الأمير ، أيده الله ! فى الصمد للفاسد حتى يصلح ، وللمعتاص حتى يسمح ، وعادة الله عنده فى المعونة الضامنة للنجاح ، الكافلة بالفلاح ؛ فما تَرِدُ علىّ من جهته بشرى إلا كنت متوقعاً لتالية لها أخرى ، ولا أستقل منها بشكر ماض سالفٍ إلا ارتهننى بترقب حادثٍ مستأنف ، والله أسأل أن يهنئه نعمته ، ويملأه موهبته ، ويبلغه فى الدين والدنيا آماله ؛ ويجمل فيهما أحواله ، ويجعل رايته منصورة على أعدائه ، صغروا أم كبروا ، وكلمته العليا عليهم ، قلوا أم كثروا ، ويمكنه من نواصيهم ، سالموا أم حاربوا ، ويقودهم إلى التسليم له ، رضوا أم كرهوا ؛ ولا أعْدَمَه فيما اختصه به من حباء وكرامة ، وظاهَرَه عنده من إعلاء وأنافة ، مزيداً تتّصل مُدّتُه إليه ، وتحل عائدته عليه بحوله وطوله ؛ والأمير عضد الدولة أطال الله بقاءه ولىُّ مواصلتى عما يبهجنى من أخباره ، ويغبطنى من آثاره ، ويسرنى من عافيته ، ويُؤنسنى من سلامته ، وامتثاله من أمره ونهيه ، وأقف عنده من حده ورسمه ، إن شاء الله[1] » .

ثم انتقل استعمال الأساليب المُحَلاّة بالسجع من الرسائل السلطانية إلى الرسائل الإخوانية ؛ على أنه فى القرن الثالث الهجرى كتب الأمير الشاعر ابن المعتز إلى الأمير الشاعر عبيد الله بن عبد الله بن طاهر رسالة تعزية عن وفاة زوجته ، وقد ردّ عبيد الله على ابن المعتز شاكراً ، وكلا الرسالتين نثر مرسل لا سجع فيهما[2] . أما فى القرن الرابع فكان لا يخطر على البال أن تكتب مثل هذه الرسائل من غير أن يكون فيها سجع ؛ وقد عظم شأن هذا الفن ، فن كتابة [illegible] ، فى أواخر القرن الرابع حتى كان الناس يستطيعون أن يعيشوا من

---

(١) رسائل الصابى ص ٥٦ — ٥٨ .

(٢) كتاب الديارات للشابشتى ص ١٤٦ وما بعدها .

هذه الصناعة ، كما عاش الشعراء قديماً من التكسب بالشعر . وكان أبو بكر الخوارزمي ، (المتوفى عام ٣٨٣ هـ — ٩٩٣ م) ، أشهر كتاب الرسائل الإخوانية ؛ وقد ظل زماناً طويلاً أكبر كتاب العرب .

كان أصل الخوارزمي من طبرستان ، ومولده ومنشؤه بخوارزم ؛ وقد تقلب في البلاد ، وشرّق وغرّب ، واتصل بجميع الأمراء تقريباً في شرق المملكة الإسلامية . فورد بخارى ونيسابور ، وهراة ، وأصفهان ، وشيراز ، وغيرها[1] . وكانت رسائله توجّه إلى الأمراء والوزراء والقضاة والعمال والعلماء واللغويين ، وكان موضوعها ما يرد في الرسائل عادة من التهنئة بالأعياد ، وبارتفاع المنصب ، وبالنجاة من الشر ، والتعزية بالوفاة ، والكتابة بعد نكبة أو محنة أو خلع ، والكتابة بمناسبة المرض ، أو الخروج لحرب ، أو الشكر على هدية . ومن رسائله رسالة كتبها إلى صاحب ديوان الخراج جاء فيها : « حيث صرت ألزَمُ خراجاً التزم بنو المدبِّر أضعافَه البحتري ، وأضايق في ضيعةٍ وهب أمثالَها محمدُ بن الهيثم العنوي لأبي تمام الطائي . . . . وقد عرف الشيخ أني لا أقيم على الخَسْف ، ولا أحِلُّ إلا خُطة النَّصَف ، فإن رأى ألا يفجع خراسان بلسانها ، ولا يخليها من سيفها وسنانها ، فعل » ، فوَضَع صاحب الخراج عنه خراجَ سنة[2] .

ويظهر أن صيت الخوارزمي جذب إليه كثيراً من التلاميذ ، وخصوصاً من الفقهاء ؛ ونجد في رسائله الكثيرَ موجّهاً إلى تلاميذه الجدد أو القدماء ؛ ومنها رسالة شكر فيها رجلا على اصطناعه فقيهاً من تلاميذه[3] . ومن أمثلة ما كتبه

---

(١) يتيمة الدهر ج ٤ ص ١٢٣ والصفحات التالية .

(٢) رسائل الخوارزمي ص ٨١ .

(٣) رسائل الخوارزمي ص ١١٩ .

لبعض تلاميذه : « كُتُبُك ، يا ولدى ، عندى تُحَفٌ وشمامات وأنوارٌ وباكورات أفرَحُ بأولها ، وأنتظر ورود ثانيها ، وأشكرك على ماضيها ، وأعُدُّ الأيام والليالى على باقيها ، فكثِّرْ علىَّ سوادَها ، ووفِّر علىَّ أعدادها ، واعلم أنى أحبك حباً مستكناً وباديا .

أُحِبُّك ما لو كان بين معاشر من الناس أعداء لجرّ التصافيا

وأنى آنس بك حاضراً ، وأشتاق إليك غائباً ، شوقاً لو عرفتَه لتكبرت على الورى ، ولم تُقِمْ وزناً لأهل الدنيا ، وكنتَ لا تنظر إليهم إلا بمؤخر عينك ، ولا تكلمهم إلا ببعض شفتيك[1] . »

ولو قارنا بين رسائل الخوارزمى ورسائل الصابى لوجدنا هذه أكثر اتزاناً ، وأقل مبالغة ، وأقرب إلى الواقع ؛ وكان أهم ما عند الخوارزمى المحسّنات البديعية والسلاسة ؛ أما موضوع الرسالة فهو بمثابة خيط ينسج الفنان حوله ثمرات خياله وبلاغته ، كما يلتف النبات المتسلق حول الخيط الذى ينصب له ؛ وبين هذا وبين الأسلوب العربى القديم كثيرٌ من وجوه الشبه ، من شغف لجزلة ذات الجرس ، والتشبيهات الحسنة ، وقلق نفس الكاتب ؛ غير أن ما كانت تنطوى عليه القروضية قديماً من نبل العاطفة وقوتها قد تغير وصار موضع سخرية ؛ وهذه هى الصورة الوحيدة التى أتيحت له فى مجتمعات المدن .

أما الصفات الرئيسية التى اتصف بها أسلوب الخوارزمى ، فهى أيضاً صفات الأسلوب الساخر : وهى المبالغة والتكرار والحشو ؛ وهو يعمد إليها باعتبارها طريقة فنية فى الكتابة ؛ فمن ذلك فى إحدى رسائله : « فلان أبطأ علىّ ، فليت شعرى

---

(١) رسائل الخوارزمى ص ٧٦ .

الريح قلعته ، أم الأرض ابتلعته ، أم الأفعى نهشته ، أم السباع افترسته ، أم الغول أغوته ، أم الشياطين استهوته ، أم أصابته بائقة ، أم أحرقته ، أم رفسته الجمال ، أم اغتاله الجتال ، أم انتكس على ظهر جمل ، أم تدحرج من رأس جبل ، أم وقع في بير ، أم انهار عليه جرف شفير ، أم جفت يداه ، أم قعدت رجلاه ، أم ضرَّ به الجذام ، أم أصابه البرسام ، أم جس غلاماً فقتله ، أم تاه في البر ، أم أغرق في البحر ، أم مات من الحرّ ، أم سال به سيل زاعب ، أم وقع فيه سهم من سهام الآجال صائب ، أم عَمِل عَمَل أهل لوط ، فأرسلت عليه حجارة من طين منضود مسوّمةً عند ربك ، وما هي من الظالمين ببعيد ! »[1] . وكتب إلى رجل طلب نسخة من رسائله : « ... ولو قدرت لجعلت الورق من جلدى ، بل من صحن خدى ، والقلم من بنانى ، والمداد من أجفانى »[2] . وقد تؤتينا مبالغته في كثير من الأحيان مجموعةً قيمة من الأحوال المتعارضة التى قد تعرض فى حياة ذلك العصر ، كالذى كتبه الخوارزمى إلى أبى على البلعمى لما فارق الحضرة وورد نيسابور ؛ ومما قاله فى وصف حاله : « ... حتى لقد ركبت غير دابتى ، وأكلت غير نفقتى ، ونزلت بيتاً بكراً ، وأكلت حبزاً بسرا ، وحرمت العيق ، وشربت الزبيب ، ولبست الصوف فى الصيف ، والبردى فى الخريف ، وكوتبت مواجهةً ، وخوطبت بالكاف مشافهة ، وأجلستُ فى صف النعال ، أعنى أخريات الرجال ، وناظرنى من كان يدرس علىّ ، وخالفنى من كان يختلف إلىّ ، وحتى لقد نشزت علىّ جاريتى ، وحزنت دابتى ، وتقدمنى فى المسير رفيق الذى جمعنى وإياه طريقى ، وحتى إنى أخذت الدرهم الجيد ، فصار فى يدى ستوقاً ، وقطعت الثوب المشترى

---

(١) رسائل الخوارزمى ص ٨٨ .

(٢) نفس المصدر ص ١٠٦ . انظر أيضاً ص ٦٨ .

فصار على بدنى محروقاً ، وفصلت ثيابى فى تموز ، فغابت الشمس وطلع السحاب ، وسافرت فى حزيران ، فعصفت الريحُ وسد الأفقَ الضبابُ ، ونفدت كل شىء ملكته ، غير عرضى الذى عهده الشيخ منى وصبرى الذى عرفه منى »[1] وقد يصل باستعمال الحشو والتكرار إلى ملاطفة من يوجه إليه الخطاب وتملقه ، ويذكر لنا مع ذلك مجموعة من الكتب التى يستطيع الإنسان أن يرجع إليها حينما يريد أن يكتب خطاباً من السجع الحسن ؛ فقد جاء فى إحدى رسائله : « ذكر السيد أنه كتب جواب كتابى من الظاهر إلى المصر ؛ ولقد استبطأته على ما أعرفه من بُعد غوره ، وغزارة بحره ، ولكنى أغلقت لهذا الجواب بابى ، وأرخيت له حجابى ، وضممت إلى نشر كتب آدابى ، وجلست من الدواوين بين آل الجراح وآل بويه وبنى الخصيب وبنى مقلة ؛ ونشرت من المقابر آل يزداد وآل شداد ، وحشرت من الآخرة ابن المقفع البصرى ، وسهل بن هارون الفارسى ، وابن عبدان المصرى ، والحسن بن وهب الحارثى ، وأحمد بن يوسف المأمونى ، ووضعت عن يمينى عهد أردشير بن بابكان ، وعن يسارى كتاب البيان والتبيين ، وبين يدىَّ فصول بزرجمهر بن البختكان ، وقبل ذلك رسائل مولانا الصاحب ، عين الزمان ، وزين الشيب والشبان ؛ فما زلت أسرق من هذا كله ، وأنظر من ذلك فقرة ، وأستمير من هناك نادرة وثيقة ، أغصب الأحياء على بيانهم ، وأنبش الموتى من أكفانهم ، وأنا فى أثناء ذلك رَطْبُ اللسان بالدعاء ، رطب العين بالبكاء ، أدعو الله بالتوفيق والتسديد ، وبالعصمة والتأييد »[2] .

على أن الخوارزمى كان فى نظر معاصره الهمذانى (وكان هذا أصغر سنا من

(١) رسائل الخوارزمى ص ٣٠ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٢ .

الأول) لا يحسن من الكتابة « إلا هذه الطريقة الساذجة وهذا النوعَ الواحد المتداول بكل قلم ، المتناول لكلّ يد وفم »[١] .

وكان أبو الفضل الهمذاني هو زعيم الطريقة الجديدة والحامى لها ؛ فارق همذان سنة ٣٨٠ هـ وهو مُقْتَبِلُ الشبيبة ، غضُّ الحداثة (كان يناهز الثانية والعشرين) ؛ وورد حضرة الصاحب فتزوّد من ثمارها ؛ ثم ورد جرجان ، وأقام بها مدة ، ووافى نيسابور سنة ٣٩٢ هـ[٢] ، أى بعد أن فارق وطنه باثنى عشر عاماً ؛ ثم شجر بينه و بين أبى بكر الخوارزمى ما كان سبباً فى عُلُوّ أمره ، وبُعْدِ صيته ، إذ لم يكن فى الحسبان أن يباري الخوارزمى أحدٌ ؛ فلما تصدى الهمذانى لمساجلته ، وجرت بينهما مكاتبات ومناظرات ومناضلات ، وغلب هذا قومٌ وذاك آخرون ، وجرى من الترجيح بينهما ما يجرى بين الخصمين المتصاولين ، طار ذكر الهمذانى فى الآفاق ، وارتفع مقداره عند الملوك والرؤساء ؛ ثم أجاب الخوارزمى داعى ربه ، فخلا الجو للهمذانى ، وتصرّفت به أحوالٌ جميلة ، وأسفارٌ كثيرة ، ولم يبق من بلاد خراسان وسجستان وغزنة بلد إلا دخلها ، واستفاد خيرها ؛ وألقى عصاه بهراة ، ثم صاهر أبا علي الحسين بن محمد الخشنامى ، وهو الفاضل الكريم الأصل ، فانتظمت أحوال أبى الفضل بهذه المصاهرة ، واقتنى بمعونة صهره ومشورته ضياعاً فاخرة ، وعاش عيشة راضية ، وحين بلغ أشده وأربى على الأربعين سنة ناداه ربه فلباه فى سنة ٣٩٨ هـ ، « فقامت عليه نوادب الأدب وانثلم حدُّ القلم »[٣] .

---

(١) رسائل الهمذانى طبعة بيروت ص ٧٦ .

(٢) هذا هو الصواب كما فى الإرشاد لياقوت (ج ١ ص ٩٦) ، لا ٣٨٢ هـ كما فى يتيمة الدهر للثعالبى (ج ٤ ص ١٦٨) .

(٣) يتيمة الدهر ج ٤ ص ١٦٧ — ١٦٨ ، وذكر ابن [illegible] خلكان (ج [illegible]

كان أبو الفضل مشهوراً بذكاء القريحة وقوة الحفظ ؛ وكان يُنشَدُ القصيدة التي لم يسمعها قط ، وهي أكثر من خمسين بيتاً ، فيحفظها كلها ، ويؤديها من أولها إلى آخرها ، لا يخرم حرفاً ، ولا يُخِلّ بمعنى[1] . وكان من العجائب التي يقدر عليها ، ويعجز عنها الخوارزمي أنه كان يستطيع أن يكتب كتاباً يُقرأ فيه جوابه ، أو كتاباً يُقرأ من آخره إلى أوله ، أو كتاباً إذا قرئ من أوله إلى آخره كان كتاباً ، فإن عكست سطوره مخالفة كان جواباً ، أو كتاباً لا يوجد فيه حرف منفصل ، من راء يتقدم الكلمة أو دال ينفصل عنها ، أو خالياً من الألف واللام ، أو من الحروف العوامل ، أو أول سطوره كلها ميم وآخرها ميم ، أو كتاباً إذا قرئ معرجاً وسُرد موشّحاً كان شعراً ، أو إذا فسر على وجه كان مدحاً ، وإذا فسر على وجه كان قدحاً[2] . وكان هذا وأشباهه يعتبر أعلى درجات القدرة على الإنشاء في ذلك العصر

وكذلك يعيب الهمذانيُّ الجاحظَ بأن كلامه سهلٌ ، قليلُ الاستعارات ، قريب العبارات ، وأن الجاحظ « مُنْقادٌ لعريان الكلام يستعمله ، نَفُورٌ من معتاصه يُهْمِلُه[3] » .

غير أن رسائل الهمذاني التي انتهت إلينا ليس فيها لحسن الحظ مثل هذه الإشارات المتاصة ، فهي قد كفتنا مشقة ذلك ، ولكنها أكثر التواء وتكلفاً من رسائل الخوارزمي وأحفل بالتشبيهات البعيدة المطلب وبأنواع الجناس .

= — ٦٩ من طبعة فستنفلد) أن بديع الزمان مات من السكتة ، وعجل بدفنه ، فأفاق في قبره ، وسمع صوته بالليل ، فنبشوا عنه فوجدوه قد مات من هول القبر .

(١) يتيمة الدهر ج ٤ ص ١٦٧ . (٢) رسائل الهمذاني ص ٧٤ .

(٣) مقامات الهمذاني طبعة بيروت ١٨٨٩ ص ٧٢ .

وقد ظهر شيء جديد تجاوز أسلوب الرسائل ، وهو الميل إلى القصص والحكاية ؛ فنجد الأدباء يذكرون فى سياق رسائلهم بين حين وآخر حكايات طويلة أو قصيرة على سبيل التمثيل ؛ فمثلا يشبّه الهمذانى فى إحدى رسائله حال الطامع الذى يذهب به الأمل والطمع بعيداً ، والظهورُ منه قريب ، بحال الرجل البخارى الذى ضاع حمارُه . يقول الهمذانى : « ... ثم لم يكن مَثَلى معه إلا مَثَل البخارى الذى ضاع حماره ، وخرج فى طلبه ، حتى عبر جيحون بسببه ، يَطْلُبُه فى كل مَنْهَلة ، وينشده فى كل مرحلة ، وهو لا يجده ، حتى جاوز خراسان ، وانتهى إلى طبرستان ، وأتى العراق ، وطاف الأسواق ؛ فلما لم يجده ، وأيس ، عاد ، وقد طالت أسفاره ، ولم يَحْصُل حماره ، حتى إذا حصل فى بلده ، بين أهله وولده ، أحبّ الله أن يَلْطُف به لُطْفاً ليعتبر به ، فنظر ذات يوم إلى اصطبله فإذا الحمار بسرجه ولجامه وثفره وحزامه قائماً على المعلف ينشّ ... »[1] .

وهو يقول مدلّلا على أن الإنسان يظل هواه دائماً مع وطنه : « إن الإبل على غلظ أكبادها لتحنّ إلى بلادها ، وإن الطير لتقطع عرض البحر إلى مظانها » .

وَيَحْكِى عن ذى اليمينين طاهر بن الحسين أنه « لما وَلِىَ مصر وافاها مضروبةً قبابُها ، مفروشةً أرضُها ، مزخرفةً جدرانُها ، والناس ركباناً ورجالا ، والنثار يمينا وشمالا ؛ فأطرق لا ينطق حرفاً ، ولا يرفع طرفا ، ولا يهشّ إلى أحد ، فقيل له فى ذلك ، فقال : ما أصنع بهذا ، وليس فى النظّارة مجائز بوشنج (وهى بلده) ! ! »[2] .

---

(١) رسائل الهمذانى ص ١٧٤ — ١٧٥ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٧٠ .

وكذلك يحكى الهمذانى حكاية التاجر مع ولده ويتمثل بها ؛ وكان التاجر قد جهز ولده بمال للتجارة ، وأوصاه عند ما خرج من بلده بأن يحذر النفس وسلطانها . وكان مما قاله له ستحدثك النفس بمعنى اسمه القَرَم ، ويخبرك السفهاء عن شيء يقال له الكَرَم ؛ وقد جرّبتُ الأول فوجدته أسرع فى المال من السوس ، ونظرت إلى الثانى فوجدته أشأم من البسوس ؛ ودعنى من قولهم : أليس الله كريماً ؟ بلى ، ولكن كرمه يزيدنا ولا ينقصه ، وينفعنا ولا يضره ؛ فأما كرم لا يزيدك حتى ينقصنى ، ولا يريشك حتى يَبْرِيَنى ، فهو خذلان ؛ فلما فصلت العير لجّت بالفتى همّةُ العلم ، فأنفق ما معه من المال فى طلبه ، « فلما انسلخ من طارفه وتالده رجع بالقرآن وتفاسيره إلى والده ، فقيراً لا يملك نقيراً ، وقال : يا أبتِ جئتك بسلطان الدهر ، وعزّ الأبد ، وحياة الخُلْد ؛ جئتك بالقرآن وتفاسيره ، والحديث بأسانيده ، والفقه بأبازيره ، والكلام بأفانينه ، والشعر بغريبه ، والنحو بتصاريفه واللغة بأصولها ، فاجْنِ العلم نَوْراً ونُوراً والآداب حُرّا وحُوراً ؛ فأتى به إلى السوق وقدّمه للصراف والبزاز والعطار والخباز والقصاب ، وانتهى إلى البقال ؛ فساومه عن باقة بقل ، وقال : انتقِ تفسير أى سورة شئت ، فتنحّى البقال ، وقال : إنما نبيع بالكسرة المكسّرة لا بالسورة المفسّرة ، فأخذ الوالدُ تراباً بيده ، ووضعه على رأس ولده ، وقال : يا ابن المشئومة ، ذهبتَ بقناطير ، وجئت بأساطير ، لا يبيع بها ذو عقل باقةَ بقل[١] » .

وإذا كنا نجد عند الهمذانى ميلا إلى القصص والحكاية ، فقد كان يقابل ذلك عند الصاحب بن عبّاد ومن يتصل به اهتمامٌ خاص شديد بالجوّالين المكدّين

---

(١) رسائل الهمذانى ص ٣٩٣ وما بعدها .

وحكاياتهم ومخاطراتهم ولغتهم . وكان الصاحب بن عباد نفسه يحفظ « مُناكاة بنى ساسان » حفظا عجيباً ؛ ويعجبه من أبى دُلَف الخزرجى الشاعر وفورُ حظه منها ؛ وكانا يتجاذبان أهدابها ؛ وكان أبو دلف هذا شاعراً كثير المُلح والطرف « أخلَق النسعين فى الأطراف والاغتراب ، وركوب الأسفار الصعاب ، وضرب صفحة المحراب بالجراب فى خدمة العلوم والآداب » ، وقد دوّخ البلاد ، فطاف بالهند والصين ، « وكان ينتاب حضرة الصاحب بن عبّاد ، ويكثر المقام عنده ... ويتزود كتبه فى أسفاره ، فتجرى مجرى السفاتج فى قضاء أوطاره[1] » .

ولم تقتصر دقة ملاحظته بالعين والأذن على أحوال البلاد الأجنبية ، بل شملت أحطّ طبقات أمته ، وهى الطبقة التى يجهلها المثقفون فى العادة جهلهم لما ليس فى بلادهم ؛ وكان الجاحظ أيضاً هو أول من كشف عن هذه الناحية ؛ فقد تكلم قبل ذلك العهد بمائة وخمسين سنة عن المُكَدِّين ، وأسمائهم ، وما يمتازون به ، ويحتالون به[2] ؛ ثم جاء البيهقى فى أوائل القرن الرابع فنقل عن الجاحظ ، وتوسّع فى الكلام عن أصناف المُكدين وأفعالهم ونوادرهم[3] .

أما أبو دلف فإنه ألف قصيدة طويلة فى أصناف المكدين وشرحها شرحاً وافياً كافياً وتقدم كثيراً على كل من الجاحظ والبيهقى[4] .

ويرجع الفضل فى حصره على ذلك إلى الأحنف العكبرى الشاعر ؛ فقد كان الأحنف أيضاً جوالا ، طاف البلاد ، وتنقل تنقلا مؤثراً بحرمانه من وطن يأوى

---

(١) يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٧٤ — ١٧٥ .

(٢) كتاب البخلاء للجاحظ ، طبعة فان فلوتن ص ٤٧ وما بعدها .

(٣) المحاسن والمساوئ ص ٦٢٢ — ٦٢٧ .

(٤) يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٧٥ وما بعدها .

إليه ؛ ولكنه التزم طريقة الشعراء الحقيقيين ، فلم يحاول أن يذكر فى شعره كل الألفاظ الصعلوكية التى تبين أصناف المكدين وألفاظهم ؛ وإنما ترك بعض ذلك لأبى دُلَف[1] .

أما الهمذانى فقد طبر فى هذا الميدان متميزاً بنزعة خاصة إلى الحكايات القصصية التمثيلية القصيرة التى تغلب عليها الصبغة البلاغية ؛ وكانت ثمرة ذلك مجموعة من المقامات ، منها واحدة تسمى الرصافية ، وهى معرض تجتمع فيه الاصطلاحات المتعلقة بالمكدين ، كما هو الحال فى قصيدة أبى دلف[2] . والهمذانى نفسه يشير إلى تأثره فى مقاماته بأبى دُلف ؛ وذلك بأن أخذ من قصيدته الأبيات التى ذكرها فى المقامة الأولى[3] . وقد قدح الخوارزمى فى الهمذانى بأنه لم يحسن سوى هذه المقامات ؛ فثارت لهذه التهمة ثائرة الهمذانى[4] . ومن أسف أننا لا نعرف الناحية التى أعجبت الخوارزمى فى هذه المقامات .

أما عندنا فالتقدم الكبير الذى نلاحظه هو أن جميع المقامات تدور كلها حول رجل واحد هو أبو الفتح الأسكندرى ؛ وبذلك تقوم الحكايات المختلفة

---

(١) نفس المصدر ص ١٧٥ . على أنه يقال فى هذا النص إنه كان للكبرى قصيدة دالية فى المناكاة وذكر للمكدين . (المترجم) .

(٢) يفتخر الهمذانى (رسائل ص ٣٨٩ — ٣٩٠ ، ٥١٦) بأنه أملى فى المكدية أربعمائة مقامة لا مناسبة بين المقامتين لا لفظاً ولا معنى ؛ ولكن لم يصل إلينا إلا نحو من خمسين مقامة منها ؛ وينبغى ألا نعتبر الأربعمائة رقماً دقيقاً ، فإن الهمذانى يؤكد فى رسائله (ص ٧٤) أنه يقدر على أربعمائة صنف من الترسل .

(٣) اليتيمة ج ٣ ص ١٧٦ . على أن المقامات لم يذكر تاريخ تأليفها ، فيقول المصرى (على هامش العقد الفريد ج ١ ص ٢٨٠) إن المقامة الحمدانية (ص ١٠٠ وما بعدها من طبعة بيروت) أمليت سنة ٣٨٥ هـ — ٩٩٥ م .

(٤) رسائل الهمذانى ص ٣٨٩ — ٣٩٠ .

الأشكال على أساس واحد ، وهذا تمهيد لكتابة الروائية على صورة أكبر ؛ ولم يكن قد بقى على الهمذانى إلا خطوة واحدة ليأتى لنا بقصص الحتالين واللصوص من أخف وألطف نوع لم يصل إليه أحد إلى اليوم . ولكن هذه الخطوة لم تتم مع الأسف ؛ ولم يكن ذلك لنقص أو قصور فى القدرة على نسج القصص وربط أجزائها ؛ فهذه القدرة كانت موجودة ، ونحن نلاحظها فى القصص الشعبية ؛ ولكن السبب هو أن المقامات كانت ولا تزال أدباً يؤلف البلغاء ، وهؤلاء لا يعنون بربط أجزاء القصة بعضها ببعض ، وإنما يعنون بالألفاظ والأساليب البليغة . وقد أوجدت هذه المقامات ميلا إلى الخطب ذات الأساليب الوضاءة التى تشبه « الصواريخ » التى تنطلق لامعة ، ثم تنفق

وكذلك أساليب البلغاء لم يكن لها ، رغم جمالها ، أثر فى وضع قصة طويلة متماسكة الأجزاء .

على أنه قد جمعت أشعار الهمذانى أيضاً[١] ؛ وهى قصائد تدل على أن صاحبها كان بفطرته كاتباً موهوباً ، ولم يكن شاعراً ؛ فهى أساليب بلاغية محضة مجردة من كل عاطفة شعرية ، وفيها فرط تكلف فى الألفاظ والمعانى ، فمثلاً يقول الهمذانى :

إذا سجع القمرىُّ راسلتُ لحنه ... بإيقاع دمع والغناء موافق[٢]

وهو يتلاعب فى شعره بعلم البيان فيكتب مسودة معرّاة من الواو ، وهو ما لم يستطع الصاحب بن عباد أن يفعله ، مع أنه استطاع عمل قصائد كل واحدة منها خالية من حرف من حروف الهجاء[٣] .

---

(١) طبع ديوانه بمصر عام ١٣٢١ هـ ، ومخطوط باريس (٣١٤٧) أدق وأوفى .
(٢) الديوان ص ٥٩ ، والظاهر أن المؤلف لايعجبه تشبيه الدمع بالإيقاع الموسيقى . (المترجم)
(٣) يتيمة الدهر ج ٣ ص ٢٢٣ ؛ والديوان مخطوط باريس ص ٥٤ أ — ب .

وتدل عناية الحصرى[1] (المتوفى عام ٤٥٣ هـ — ١٠٦١ م) برسائل الهمذانى على أن الهمذانى قد غلب على من تقدمه ؛ فالحصرى يذكر أجزاء طويلة من رسائل الهمذانى ؛ أما الخوارزمى فلا يذكره أصلاً .

وكان أبو العلاء المعرّى (٣٦٣ — ٤٤٩ هـ = ٩٧٣ — ١٠٥٧ م) أكبر كتاب النثر فى عصر الحصرى . ويقول ناصر خسرو الرحالة الفارسى الذى ورد المعرّة سنة ٤٢٨ هـ — ١٠٣٧ م « إن فضلاء الشام والمغرب والعراق يقرّون أنه لا نظير له فى هذا العصر ، ولن يكون له نظير » ، وقد أشاد الرحالة الفارسى إشادة خاصة بوصف كتاب لأبى العلاء « جاء فيه بكلمات مرموزة وأمثلة بألفاظ فصيحة ومجيبة ، بحيث لا يقف عليه الناس إلا قليل منهم ، وهؤلاء يقرؤونه عليه أيضا »[2] .

وكان ذلك هو المثل الأعلى للنثر الجيد فى ذلك العصر ؛ وقد ادّخر أبو العلاء العويصة لقصائده ، ولكنا نجد الأسجاع قد صارت فى رسائله أقصر مما نجده عند الهمذانى ، كما أننا نجد تشبيهاته أكثر تكلفاً ؛ وكثيراً ما تطغى الصناعة والتكلف اللفظيان على الشرض من الرسالة ، حتى يجد القارئ مشقة فى الوصول إلى معرفته ؛ وكثيراً ما نجد فى رسائله تشبيهات متكلفة مطوّلة كثيراً بالنسبة لما عرف من قبل ، فمن ذلك قوله : « وأسفى لفراق سيدى الشيخ ، أدام الله عزه ، أسف ساق حرّ ، ساقه الطرب إلى الحر ، توارى بالوريقة ، من حر الوديقة ، كأنه قينة وراء ستر ، أو كبير حجب من الهتر ، فى عنقه طوق ، كرب

---

(١) زهر الآداب المطبوع بمصر على هامش العقد الفريد .

(٢) ناصر خسرو ص ١١ من طبعة شيفر . [وهذا النص نقله إلى العربية عن كتاب سفر نامه ص ١٦ من طبعة كاويانى ببرلين — المترجم] .

بصده الشوق ، لو قدر لانتزعه باليد ، من القلب أسفاً على إلف ، غادره للكمد ، أى جنف ، أرسله ، فهلك ، ينوح ، فالحمام عليه تنوح ، يسمك بالغناء أصناف الغناء ، ويظهر فى الغصون خفىّ الوجد الغصون » ، وهلمّ جرّا[1] .

وبعد الكلام تلمع من ثناياه الإشارات اللطيفة وأنواع الجناس اللفظى ، ويكاد نجد فى كل جملة صدى من ذلك قليلا أو كثيراً .

وهذا التعبير عن الشوق المرسل إليه هو الموضوع الذى تُبدأ به الرسائل عادة . على أننا نجد الهمذانى قد عبر عن شوقه بما هو أبسط من ذلك ، مثال ذلك قوله : « معاذ الله أن أشتاق إلى حضرته ، لكنى أفتقر إليها افتقار الجسد إلى الحياة ، والحوت إلى الفرات »[2] .

أما بعد ذلك فنجد الكتّاب يعبّرون عن الشوق ، ويبالغون فى التمثل بالحمام أو نحوه مما لم تجر به عادة .

فمثلا يقول أبو العلاء : « وشوقى إليه وإلى الجماعة الذين عرفتهم بمدينة السلام كالنسيم لا يجمد ، ونار فارس ليس تخمد ؛ وفقرى إلى لقائه ولقائهم فقرُ الذى أملق إلى الصلة ، وبيت الشعر إلى القافية المتصلة » .

ويقول أيضاً : « شوقى إلى مولاى الشيخ مناسب طول الدهر لا ينفد بسنة وشهر ، كلما ذهب زمان صادف ، أعقبه من الأزمنة رادف » .

ويقول : « شوقى إلى سيدى الشيخ شوق البلاد الممحلة ، إلى السحابة المنسحلة ، وانتظارى لقدومه انتظار تاجر مكة وفد الأعاجم » .

---

(١) رسائل أبى العلاء نشرة مرجليوث ص ٤٦ — ٤٧ ، ص ٥٢ .

(٢) رسائل الهمذانى ص ٨ .

ويقول أيضاً : « وأنا والجماعة نبعث إلى سيدى الشيخ مع راكب الطريق ونسيم الريح الطريق ، والعقيق المومض ، والخيال المتعرض ، سلاما تأرّجُ رحالُ الرفقة إذا استُودعته ، وتبتهج قلوب النفر إن الآذان منهم سمعته[1] » .

أو نجد فى بعض الرسائل مبالغة فى المجاملة والملاطفة لا حد لها ؛ فمن ذلك أن أحد الأدباء أهدى إلى أحد الأمراء مختصراً لكتاب مشهور فى النحو ، فعاتبه المعرى عن إهدائه المختصر بأن شبّهه فى دقته وإحاطته بما فى الأصل بالفرات ، جرى مُن سمّ الخياط ؛ وأول ما نجده فى رسائله رسالته التى بعث بها إلى بمصر ، وفى أولها يقول : « إن كان للآداب ، أطال الله بقاء سيدنا ، نسيم يتضوّع ، وللذكاء نار تشرق وتلمع ، فقد فضمنا على بعد الدار أرجُ أدبه ومحا الليلَ عنا ذكاؤه بتلهّبه ، وخوّل الأسماع شنوفا غير ذاهبة ، وأطلع فى سويداوات القلوب كواكب ليست بغاربة ؛ وذلك أنا معشرَ أهل هذه البلدة وُهب لنا شرف عظيم ، وأُلقى إلينا كتاب كريم ، صدر عن حضرة السيد الحبر ، ومالك أعنة النظم والنثر ، قراءتُه نُسُكٌ ، وختامُه ، بل سائره ، مسك ؛ وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ؛ أجِلّ عن التقبيل ، فظلالُه المقبّلة ، ونُزّه أن يبتذل ، فنسخه المبتذلة ؛ وإنه عندنا لكتاب عزيز ... وإنما المنازل التى ينزلها السيد كالشهب الثاقبة الموفية على العشرين بثمانية ، نزل بها الزبرقان فتشهرت ، ونسبت العرب إليها كلّ سحابة أمطرت[2] » . وكتب أبو العلاء إلى رجل أخبره بأنه سيزور بلدته المعرّة ، فوصفها له بقوله : « مثله بقدوم هذه الناحية مثل النسر الذى هو من ملوك الطير وعظمائها ، تتصل من أوصاله رائحة المسك ، يهبط

---

(١) رسائل أبى العلاء ص ٣٦ ، ٤٥ ، ٥٤ ، ٨٨ .

(٢) رسائل أبى العلاء ص ٣ وما بعدها .

على نبيلة جد و بيلة ، وهذه جمل من صفة المعرّة : هى ضد ما قال الله عز وجل : (مثل الجنة التى وُعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن ...) اسمها طِيَرة ، وعند الله تُرجى الخيرة ؛ المورد بها محتبس ، وظاهر ترابها فى الصيف يبس ؛ ليس لها ماء جارٍ ، ولا تغرس بها غرائب الأشجار ، وإذا أبرز لأهلها ذِبحٌ ، يؤمّل به الربح ، تحسبه صبغ بخطر ، فكأنما يرمق به هلال الفطر ؛ وقد يجيئها وقت يكون فيها جدى المعز فى العزة كجدى الفرقد ، ومثل جل الكواكب حمل النقد ، ويبكر فقيرها على المداية قبل أبى الفرخين ابن داية ، حتى يقف ببائع الرسل ، فكأنما وقف برضوان يستوهبه ماء الحيوان[١] » .

والفن العظيم الذى يتجلى فى هذه الطريقة بما فيها من زخارف كثيرة تشبه « السوارع » جعل اللغة سلسة القياد إلى درجة نادرة ، قوية التعبير برغم الاختصار ، وهو الطريقة التى استند إليها كل الذين كانوا يريدون التعبير عما فى نفوسهم مراعين فى ذلك غاية ما أرادوا من الإيجاز والقوة والحرية فى التعبير .

وقد بلغ أبو حيان التوحيدى (المتوفى حوالى عام ٤٠٠ هـ — ١٠٠٩ م) مرتبة الأستاذ لهذه الطريقة ، وكان على ذروة من ذراها . وأول ما نلاحظه أنه كان عالماً بدقائق الأسلوب الرائع ، وقادراً عليه ؛ غير أننا نكاد لا نلاحظ فى أسلوبه ذلك التكلف الذى نجده عند غيره من الأدباء . ولم يُكتب فى النثر العربى بعد أبى حيان ما هو أبسط وأقوى وأشد تعبيراً عن مزاج صاحبه مما كتب أبو حيان ؛ ولكن الجمهور كان يميل إلى طريقة الآخرين فى البديع ، فيجرى عليها ويعظم أصحابها ؛ ولقد كان أبو حيان فناناً غريباً بين أهل عصره ، وكان يعانى وحشة من يرتفع عن أهل زمانه ، ويتقدّم عليهم ؛ وهو يقول :

---

(١) نفس المصدر ص ٥٥ .

« فقدت كل مؤنس وصاحب ، ورفيق ومشفق ؛ والله لربما صليت فى المسجد ، فلا أرى إلى جنبى من يصلى معى ؛ فإن اتفق فبقّالٌ ، أو عصّار ، أو ندّاف ، أو قصّاب ، ومن إذا وقف إلى جانبى أسدرنى بصنانه ، وأسكرنى بنَتْنِه ؛ فقد أمسيت غريب الحال غريب النحلة ، غريب الخلق ، مستأنساً بالوحشة ، قانعاً بالوحدة ، معتاداً للصمت ، ملازماً للحيرة ، ومحتملاً للأذى ، يائساً من جميع من ترى ، متوقعاً ما لا بد من حلوله ؛ فشمس العمر على شفا ، وماء الحياة إلى نضوب ، ونجم العيش إلى أفول[1] » .

وفى آخر حياته أحرق كتبه ، فلما عُذل فى ذلك قال : « إنى فقدتُ ولداً نجيبا ، وصديقاً حبيباً ، وصاحباً قريباً ، وتابعاً أديباً ، ورئيساً منيباً ؛ فشقّ علىّ أن أدعها لقوم يتلاعبون بها ، ويدنّسون عرضى إذا نظروا فيها ... وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة ، فما صح لى من أحدهم وداد ، ولا ظهر لى من إنسان منهم حِفاظ ؛ ولقد اضطررت بينهم ، بعد الشهرة والمعرفة ، فى أوقات كثيرة إلى أكل الخضر فى الصحراء ، وإلى التكفّف الفاضح عند الخاصة والعامة ، وإلى بيع الدين والمروءة[2] » .

وكتابه فى ذم الوزيرين مشحون بالثلب المقذع ، وقد ظل الناس زمانا طويلا يعتقدون أن هذا الكتاب يجلب النحس على من يقتنيه .

وآخر مظاهر لضعف الذوق العربى الأصيل أنه منذ القرن الثالث الهجرى

---

(١) رسالة فى الصداقة والصديق طبع القسطنطينية ١٣٠١ هـ ص ٥ — ٦ . ويقول أبو حيان إنه كتب هذه الرسالة « لما بلغت شمسه رأس الحائط » (ص ١٩٩) .

(٢) الأرشاد لياقوت ج ٥ ص ٣٨٧ — ٣٨٨ .

بدأت قصص السمر الأجنبية تحتل مكاناً كبيراً في الأدب العربي[١] . وكانت الإسرائيليات وقصص البحر بين تقوم ، حتى ذلك الحين ، بحاجة من يريد التسلية . أما منذ القرن الثالث فقد أضيف إلى ذلك ما ترجم من قصص الهند والفرس ، وكان أهمها في ذلك العصر حكايات ألف ليلة وليلة أو «هزار أفسان» ، (ألف حكاية) ، وهو اسمها الفارسي ، وإن كانت هذه الحكايات دون المائتي سمر موزعة على ألف ليلة[٢] .

غير أن هذه الحكايات لم تكن تروق الأدباء الذين يؤثرون قرا الفني الذي يهز أرجاء النفس والذي لا يخلو إلى جانب ذلك من زخرفة ؛ فهم يرون أنها «كتابٌ غثٌّ بارد الحديث[٣]» ؛ وكذلك نجد أبا العلاء ، الفنان الكبير ، يتكلم عن كتاب كليلة ودمنة كلام من لم يتحمس له ؛ فيقول إنه لم يَقْتَنِ هذا الكتاب ، ولم يتمكن علمه بما فيه ، ولم يتعلله سماعاً[٤] .

---

(١) جاء في أخبار العرب أن أحسن الناس جواباً وأحضرهم قريش ثم العرب ، وأن الموالي تأتي أجوبتها بعد فكرة وروية (أمالي المرتضى ج ١ ص ١٩٧ طبعة القاهرة ١٩٢٥ م) .

(٢) هل كانت قصص السندباد ضمن حكايات ألف ليلة وليلة ؟ كانت تلك القصص موجودة قائمة بذاتها ، هل تفاوت في طولها ؟ وكذلك كان يعرف أنها من كتب الهند (مروج الذهب للمسعودي ج ٤ ص ٩٠ ، والفهرست لابن النديم ص ٣٠٥) . ولقد ذكر الصولي في الأوراق (مخطوط باريس ص ٩) وابن الحجاج الشاعر (ديوان ابن الحجاج المتوفى عام ٣٩١ هـ — ١٠٠٠ م) مخطوط مدينة جوتا ص ١١ أ) أن هذا الكتاب ، كتاب السندباد من كتب الحكايات المحبوبة ، التي يميل إليها الناس ميلا خاصا . ويقال إن مؤلفه طبيب هندي يسمى سندباد ، وهو يحتوي على كتاب الوزراء السبعة والمعلم والغلام وامرأة الملك (مروج الذهب ج ١ ص ١٦٢) .

(٣) الفهرست لابن النديم ص ٣٠٤ .

(٤) رسائل أبي العلاء المعري طبعة مرجليوث ص ١٠٢

ولكن روح ذلك العصر الجديدة التى خرجت من النزعة العربية الأولى كانت تتجه إلى ما هو أجنبى ، وسرعان ما وجدنا حتى من العلماء والمعتبرين من الأدباء من لم يجد غضاضة على مكانته أن يؤلف أسماراً من النثر السهل ، غايتها مجرد التسلية ؛ فمثلا ابتدأ أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشيارى ، صاحب تاريخ الوزراء ، بتأليف كتاب على نسق كتاب ألف ليلة وليلة ، فاختار ألف سمر من أسمار العرب وغيرهم ، وكتب منها أربعمائة وثمانين سمراً ، ولكن المنية عاجلته قبل تتميمه الألف . ومما يجب ملاحظته أن الجهشيارى لم يهتم لوصل قصصه بعضها ببعض ؛ ولهذا الوصل سحره وتأثيره الخاص فينا ، لأنه يحببنا فى مواصلة القراءة بل جعل الجهشيارى كل سمر قائماً بذاته ، ويكفى لليلة واحدة[1] . ومن هذا النوع الكتبُ المسلّيةُ التى ألفها القاضى التنوخى (المتوفى عام ٣٨٤ هـ — ٩٩٤ م) . وأخيراً جاء المؤرخ الكبير مسكويه (المتوفى حوالى عام ٤٢٠ هـ — ١٠٢٩ م) ، وكان أكبر مؤرخى القرن الرابع ، فألّف كتاب « أنس الفريد » ، « وهو أحسن كتاب صُنّف فى الحكايات القصار والفوائد اللطاف[2] » .

وهذه القصص الجديدة هى من نوع يغاير كل المغايرة القصصَ القديمة التى ألفها ابن قتيبة وصاحب العقد ؛ ففيها نجد لأول مرة تمام الأسلوب القصصى الإسلامى ، أعنى طريقة القصص التى ليست عربية خالصة : وإلى جانبها انتشرت كتبٌ شعبية كثيرة لا يُعرَف مؤلفوها ؛ منها قصص فى الفروسية كالتى تحكى عن عروة بن عبد الله ، وأبى عمر الأعرج ، وكتبٌ فى النوادر والحكايات مثل حكايات جحا وحكايات ابن المعامل المغنى المشهور ، وكتبٌ هزلية مثل

---

(١) الفهرست ص ٣٠٤ .

(٢) تاريخ الحكماء للقفطى ص ٣٣١ — ٣٣٢ من الطبعة الأوروبية .

قصة عاشق البقرة ، والسنور والفأر [١] ، وخرء الطائر ، وكتاب ذات الطيب ، ثم مجموعة كبيرة من القصص الغرامية وخصوصاً حكايات الشعراء المشهورين وأهل الدهاء من النساء العاشقات وكذلك شغلت قصص الحب بين الآدميين وبين الجن مكاناً كبيراً [٢] ؛ وقد ذكر المؤرخ حمزة الأصفهانى حوالى عام ٣٥٠هـ — ٩٦١ م أنه كان فى عصره من كتب السمر التى تتداولها الأيدى ما يقرب من سبعين كتاباً [٣] . وكان من بين هذه الكتب القصصُ التى كان يؤثرها أهل الطبقة الراقية والتى يغلب عليها الوَلَهُ واللذةُ بسفح الدموع ؛ وكان يثير توقَ المشاق ما روى عن بنى عذرة من أن أحدهم « كان يموت إذا عشق » ، وعن أبطال القصص الغرامية الذين يموتون من شدة الفقد ، وتتضعضع أعضاؤهم من شدة الوجد [٤] .

وإلى هنا وقف النثر العربى إلى اليوم .

٢ — الشـــعر

كانت مدن العراق الكبرى مهداً لشعر المُحْدَثين ؛ أما قائدهم فيعتبر بشّار بن برد الذى نشأ بالبصرة ، وتوفى عام ١٦٨ هـ — ٧٨٤ م [٥] . وكان

---

(١) الأوراق للصولى ص ٩ .

(٢) الفهرست ص ٣٠٨ .

(٣) كتاب تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء عليهم الصلاة والسلام تأليف حمزة بن حسن الأصفهانى طبعة جوتنجن ص ٤١ — ٤٢ .

(٤) الموشّى للوشّاء ، طبعة لندن ١٣٠٢ هـ ص ٦٤ وما بعدها .

(٥) ألف المرزبانى (المتوفى عام ٣٧٨ هـ) كتاباً كبيراً فى أخبار الشعراء المحدثين وجعل أولهم بشار بن برد وآخرهم ابن المعتز (الفهرست ص ١٣٢) . ويقول ابن خلاّد =

أبوه طيّاناً يضرب اللبن[١] . وقد وُلد بشار أعمى ، وكان ضخماً طويلاً عظيم الخلق والوجه ؛ وقد سخر منه رجل بأن قال له كأنك فيل عرضك أثقل من طولك ؛ وذلك عند ما رُوى له قولُ بشار :

في حُلّتي جسمُ فتى ناحل لو هبّت الريحُ به طاحا[٢]

وكان بشار إذا أراد أن ينشد شعراً صفّق بيديه ، وتنحنح ، وبصق عن يمينه وشماله ، ثم ينشد ، فيأتي بالعجيب[٣] . ويُحكى عن رجل أنه قال : « عهدي بالبصرة وليس فيها غَزِلٌ ولا غَزِلَةٌ إلا يروي من شعر بشار ؛ ولا نائحة ، ولا مغنّية إلا تتكسّب به ، ولا ذو شرف إلا وهو يهابه ويخشى معرّة لسانه[٤] » . على أن بشاراً قصد بغداد وأنشد قصائده أمام الخليفة المهدي ؛

= الشاعر في شطر بيت له : والآخرون بعودهم بشار (يتيمة الدهر ج ٣ ص ٢٣٥) ؛ وهو يسمى قائد المحدثين (حمزة الأصفهاني في ديوان أبي نواس طبعة القاهرة ١٨٩٨ م ، ص ١٠ — ١١ ، والحصري على هامش العقد ج ٢ ص ٢١) .

(١) الأغاني ج ٣ ص ٢٠ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٢ و٦٥ . ويحكى عن رجل أنه قال : مررت ببشار ، وهو منبطح في دهليزه كأنه جاموس (نفس المصدر ص ٥٦) .

(٣) نفس المصدر ص ٢٢ . وكذلك كان البحتري من أبغض الناس إنشاداً ، فكان يتشدق ويتزاور في مشية مرة جانباً ومرة القهقرى ، ويهز رأسه مرة ومنكبه أخرى ، ويشير بكمه ويقول : أحسنتُ والله ؛ ثم يقبل على المستمعين فيقول : ما لكم لا تقولون : أحسنتَ ، هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله (الإرشاد لياقوت ج ٦ ص ٤٠٤) . وكان في بعض البلاد في أثناء القرن الرابع الهجري شعراء يظهرون شذوذ الشعراء كما كان الحال في العصور المتقدمة ؛ ويحكى عن أحدهم أنه دخل على بعض الولاة ، وقد طلى وجهه بطين أحمر ، ولبس لباداً أحمر وعمامة حمراء ، وأمسك عكازاً أحمر ، ولبس في رجليه خفين أحمرين (كتاب الديارات ص ٨٦ ب) .

(٤) الأغاني ج ٣ ص ٢٦ .

ويقال : إنه ألف اثنى عشر ألف قصيدة من الشعر ، وهو من أحسن ما يؤثر[1] .

وكانت لغة شعر بشار هي لغة كل الشعراء القدماء ؛ ويُذكر أنه كان ينزل بشاطئ البصرة قوم من أعراب قيس عيلان ؛ وكان فيهم بيان وفصاحة ، فكان بشار يأتيهم وينشدهم أشعاره[2] ؛ وكان بشار عليما بأسرار اللغة حتى اعتبره اللغويون حجة . ولكن هذا كله كان على الطريقة القديمة ، فلم يبتكر الشعراء المحدثون صوراً جديدة ، ولا هم اكتشفوا مادة جديدة إلا
افتتحوا قصائدهم بذكر الورد والنيلوفر وما أشبههما من أزهار
على حين كان أهل البادية يفتتحون قصائدهم بذكر الخزامى والبهار والعرار ونحوها من زهر البرية[3] ، وإن كانوا أيضاً تركوا وصف حمار الوحش إلى وصف البهائم ، كما فعل القاسم بن يوسف أخو أحمد بن يوسف الكاتب الذى كان يتولى ديوان الرسائل للمأمون[4] ، أو إلى وصف القطاط المنزلية ، كما فعل ابن العلاف (المتوفى عام ٣١٨ هـ — ٩٣٠ م)[5] .

---

(١) وقد قتل بشار ، وهو يناهز الستين أو ينف على السبعين ؛ وقد نكبه الدهر بفقد جميع أصدقائه قبل ذلك . وقد قال فى أشعاره إنه لم يبق إلا الناس الذين لا يعرفون ما هو الكلام ؛ وقد ذم المهدى ، فَوُشِىَ به إليه ، وقيل له إنه زنديق ؛ فأمر بضربه ضرب التلف حتى مات ؛ ثم ألقيت جثته بالبطيحة ، فحمله الماء إلى دجلة البصرة ؛ فأخذ ودفن ، وأخرجت جنازته فما تبعها أحد إلا أمة له سوداء سندية عجماء ما تفصح ؛ رُؤيت تسير خلف جنازته وتصيح : وا سيداه وا سيداه ! (الأغانى ج ٣ ص ٧٩ — ٧٢) .

(٢) كتاب الأغانى ج ٣ ص ٥٢ .

(٣) العمدة لابن رشيق ص ١٠٥ طبعة مصر ١٣٢٥ هـ — ١٩٠٧ م .

(٤) الأغانى ج ٢٠ ص ٥٦ .

(٥) الدميرى ج ٢ ص ٣٢١ . لابن العلاف قصيدة طويلة رثى بها هراً . وقد اختلف فى سبب هلاكها ، فقيل : كان له قط حقيقة ؛ فقتله الجيران ، فرثاه ، وقيل : بل رثى بها صديقه ابن المعتز ، ولم يصرح بذكره خوفا من المقتدر ، فورى بالقط . وقيل . بل هو رثى جارية لعلى =

أما الجديد فكان وهو البحث عن الطرائف البديعة التي تخالف المألوف والتي تسمّى الطيّبة[1] ، وهو أثر من آثار تدهور الحضارة التي دخلت في الشعر العربي حينما آلت القيادة إلى الأخلاط الذين سكنوا المدن .

وحدث في الشعر ما حدث في النثر ؛ ذلك أن الميل إلى الطرائف والمليحات قتل في الناس الميل إلى شعر البطولة القديم ؛ وقد امتُدِح الجاحظ ، لأنه كان مؤسس الطريقة الجديدة التي تجمع بين الجد والهزل ؛ وكذلك نال بشارٌ — زعيم الشعراء المحدثين — إعجابَ أبي زيد النحوي والأصمعي . وأول ما أعجبهما فيه أنه كان يجدّ ويهزل ، على حين أن منافسيه من المتمسكين بمذهب الأوائل لم يكونوا يحسنون إلا واحداً من هذين[2] . وكذلك أعجب الأصمعي في بشّار أنه كان أكثر تصرفاً في فنون الشعر ، وأغزر وأوسع بديعاً من غيره[3] . أما إسحاق الموصلي الذي كان يتحمس لمذهب القدماء فقد كان لا يعتدّ بشعر بشار ، ويقول : هو كثير التخليط في شعره ، وأشعاره مختلفة لا يشبه بعضها بعضاً ، فمنها المتناهي في الجودة ومنها غير الجيد ؛ وهو يذكر لبشار هذين البيتين .

إنما عظم سليمى حبّتي قصب السكر لا عظم الجمل
وإذا أدنيت منها بصلاً غلب المسكُ على ريح البصل

= ابن عيسى الوزير غلاما لابن العلاف ؛ ففطن بهما علي بن عيسى ، فقتلهما جميعا . فرثى ابن العلاف علانه وكنى بالهر (تاريخ أبي الفدا ج ٢ ص ٢٦١ — ٢٦٢ تحت عام ٣١٨) ، وقد كتب الصاحب بن عباد مرثية لقط عارض بها ابن العلاف (يتيمة الدهر ج ٣ ص ٢٣) .

(١) أخذت كلمة « طيب » تظهر في صفة ذلك ، وهي من الكلمات المحبوبة عند الجاحظ ؛ انظر Van Vloten, Livre des Avares, S. III.

(٢) الأغاني ج ٣ ص ٢٥ .

(٣) الأغاني ج ٣ ص ٢٤ .

ويقول إن هذا يزرى بشعره ، مهما كان فيه من الجيد[١] .

وكان « الطيب » ، وهو البديع المستطرف ، فى نظر الشعراء القدماء ، شيئاً زائداً ، لا حقيقة وراءه ؛ ولكنه انتشر عند المحدثين ، وكانت الكلمة الجارية في وصف الشعر الحسن فى القرن الثالث هى « البديع » ، أى الطريف المستحدث[٢] . وقد كتب ابن المعتز (المتوفى عام ٣٩٦ هـ — ٩٠٩ م) — وهو من أكبر الشعراء — كتاباً خاصاً بهذا المعنى .

وقد تبوأت المعانى المقام الأول ، كما هو الحال فى كل شعر غايته الجرى وراء المستطرفات وكان الشعراء يتلمسون العبارات ذات المعانى الرائقة والتنويع فى تأليف الأبيات الشعرية وفيما تتضمنه من تشبيهات وتصورات . ومن هنا جاءت المعانى التى زادها بشار بن برد وأصحابه ، فإنهم أتوا « بمعان ما مرت قط بخاطر جاهلى ولا مخضرم ولا إسلامى »[٣] . وقيل لبشار : بِمَ فُقْتَ أهل عصرك فى حسن معانى الشعر وتهذيب ألفاظه ؟ قال : « لأنى لم أقبل كل ما تورده علىّ قريحتى ، ويناجينى به طبعى ، ويبعث به فكرى ؛ ونظرت إلى مغارس القطن ، ومعادن الحقائق ، ولطائف التشبيهات ؛ فسرت إليها بفكر جيّد ، وغريزة قوية ؛ فأحكمتُ سَبْرَها ، وانتقيتُ دُرَّها ، وكشفتُ عن حقائقها ، واحترزتُ عن مُتَكَلَّفِها »[٤] .

---

(١) نفس المصدر ص ٢٨ .

(٢) وتتصل كلمة « بديع » من حيث الاشتقاق بمعنى ما هو فريد فى بابه أو غريب أو مستحدث .

(٣) العمدة ج ٢ ص ١٨٥ .

(٤) نفس المصدر .

ومن شعر بشار الذى يُعتبر « مستحدثاً » ومثالا المعانى المبتكرة والشعر الجيد قوله فى وصف حُبّه ، وهو المكفوف البصر ، لصوت امرأة تكلمت معه :

يا قوم ! أذنى لبعض الحىّ عاشقةٌ ... والأذن تعشق قبل العين أحيانا

قالوا : بمن لا ترى تهذى ، فقلت لهم : ... الأذن كالعين توفى القلب ما كانا

وهو يزيد هذا المعنى بساطة ودقة فى صورة أخرى له ، حيث يقول :

قالت عقيل بن كعب إذ تعلقها ... قلبى ، وأمسى به من حبها أثرُ :

أنّى ، ولم ترها ، تهذى ! فقلت لهم : ... إن الفؤاد يرى ما لا يرى البصر[1]

وكانت عادة الشعراء ، فيما سلف ، أنهم كانوا يشبهون الخدود بالورد ؛ أما اليوم فإن الورد يشبّه بالخدود يضاف بعضها إلى بعض .

وقد أنشد أحد الشعراء أمام رجل هذا البيت :

عشيّة حيّانى بورد كأنه ... خدود أضيفت بعضهن إلى بعض

فأعجب السامع حتى زحف إلى المنشد وطلب الزيادة[2] . وقد نال أعظمَ الإعجاب ، واعتُبر من « البديع » قولُ ابن الرومى (المتوفى عام ٢٨٠ هـ — ٨٩٣ م) :

يجذب من نقرته طيرةً ... إلى مدى يقصر عن نيله

فوَجْهه يأخذ من رأسه ... أخْذ نهار الصيف من ليله

وهو يشير بالليل والنهار إلى لون الشاعر الأسود وجمال بياض جلد الرأس[3] .

---

(١) العمدة ج ٢ ص ١٨٨ ؛ وتجد صورة أخرى لهذه الأبيات فى الأغانى ج ٣ ص ٦٧ ، وقد كان عمر بن أبى ربيعة هو صاحب طريقة قالوا وقلت فى شعر الغزل

(٢) كتاب الديارات ص ٥ ب .

(٣) العمدة ج ٢ ص ١٨٨ .

وكان ابن الرومى هذا متطرفاً فى حكمه على الشعراء المحدثين ، حتى كان يزعم أن بشاراً أشعر الناس جميعا ممن تقدم وتأخر[1] ، وهو حكم كان يقف له شعر الأدباء والنحويين فى ذلك العصر .

على أن ابن رشيق ، ناقد الشعر المعروف (المتوفى عام ٤٦٣ هـ — ١٠٧١ م) ، قرر بعد ذلك بمائتى عام أن ابن الرومى نفسه أكبر الشعراء المحدثين . وهو يروى له البيت المتقدم ويقدّمه بقوله : فقال ابن الرومى ، وأحسن ما شاء[2] .

وهذه الطريقة الجديدة قوّت ما عند الشعراء الموهوبين من ميل طبيعى إلى الاستقلال فى رؤية الأشياء بعيونهم لا بعيون المتقدمين وإلى الابتكار فى عبارتهم ، تقوية كبيرة ، وأصبح لا بحمد لهم أن يسيروا على المناهج السهلة المطروقة . ولهذه الطريقة الجديدة يرجع الفضل فى هذه الملاحة الطبيعية التى تشبه الكحَل من غير تكحُّل والتى نجدها مثلا فى رثاء بشار لبُنَيَّةٍ صغيرة له[3] :

يا بنتَ من لم يَكُ يهوى بنتا ما كنت إلا خمسة أو ستا

حتى حللت فى الحشى وحتى فتتت قلبى من جوى فانفتا

لأنتِ خيرٌ من غلام بتا يصبح سكران ويمسى بهتا

أو ما قيل فى وداع جارية[4] :

تقول غداة البين إحدى نسائهم : لِيَ الكبدُ الحرّى، فَسِرْ ا ولك الصبر

وقد خَنَقَتْها عبرةٌ ، فدموعها على خدها بيضٌ وفى نحرها صفر

---

(١) حمزة الأصفهانى فى ديوان أبى نواس طبعة القاهرة ١٨٩٨ ص ١٠

(٢) العمدة ج ٢ ص ١٨٨ ، ١٩٤ (٢) .

(٣) الأغانى ج ٣ ص ٦٣ .

(٤) حلبة الكميت ص ١٩١ .

أو فى أنواع التصوير القوية التى نجدها عند أبى نواس[1] (المتوفى حوالى عام ١٩٥ هـ — ٨١٠ م) والتى تذكرنا بما فى أغانينا الشعبية من نحو تشبيهه فعل الحب بالقلب بفعل القط بالفأر[2].

أو فى التمثيل الرفيع الذى نجده عند ابن المعتز (المتوفى عام ٢٩٦ هـ — ٩٠٩ م) فى قوله[3] :

وجلجل رعد من بعيد كأنه ... أميرٌ على رأس الهفاع خطيب

أو قوله[4] :

وددتُ إلى التقى نفسى ، فقَرّت ، ... كما رُدّ الحسـامُ إلى القراب

أو قوله فى إحدى الخمريات[5] :

فانظُرْ إلى دنيا ربيع ! أقبلت ... مثـلَ النساء تبرّجت لزناة

والكمأة الصفراء بادٍ حجمُها ، ... فبكلّ أرضٍ موسمٌ لجناة

أو قوله[6] :

زارنى ، والدجى أحمّ الحواشى ، ... والثريّا فى الغرب كالعنقود

ى فى البصرة ، وكثيراً ما كان يلبع بغلواً ويصب على قوالب معانيه ، يجوب ... بمانى (ديوان أبى نواس ص ١٠) . ويحكى عن الجاحظ المتوفى عام ٢٥٥ هـ — ٨٦٩ م أنه قال : لا أعرف بعد بشار مولّدا أشعر من أبى نواس (ديوان أبى نواس ص ٩) .

(٢) ديوان أبى نواس ، مخطوط فينا رقم ٤٧٢ ص ١٦٧ ب (؟) .

(٣) ديوان ابن المعتز ج ١ ص ١٥ . وكذلك يقول أبو تمام (فى الديوان طبعة بيروت ١٨٨٩ م ، ص ٢٧٠) :

قام فيها الرعد كالخطيب ... وحنت الريح حنين النوب

(٤) ديوان ابن المعتز ج ١ ص ١٦ .

(٥) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٣٤ .

(٦) نفس المصدر ج ٢ ص ١١٠ .

وهلال السماء طوق عروس   بات يجلى على غلائل سود .

أو قوله(١) :

أطال الدهرُ فى بغداد همّى   وقد يشقى المسافر أو يفوز
ظللت بها على كُرهٍ مقيماً   كعنين تعانقه عجوز

وكثيراً ما يكون فى شعر هؤلاء الشعراء ابتكارٌ كبير فمن ذلك قول أبى نواس :

تقول غداةَ البين إحدى نسائهم   لِيَ الكبدُ الحرّى فسِرْ ولك الصبر
وقد خَضَبَتْها عبرةٌ ، فدموعها   على خدّها خَدٌّ وفى نحرها نحر(٢)

أو قول ابن المعتز(٣) :

انظُرْ إلى حُسْنِ هلال بدا   يهتك من أنواره الحِندِسا
كمِنْجَلٍ قد صيغ من فضة   يحصد من زهر الدجى نرجسا

أو قول ابن الرومى(٤) :

وقد نشرت أيدى السحاب مطارفا
على الأرض دُكْناً وهى خُضرٌ على الأرض
يطرّزها قوسُ الغمام بأصفر   على أحمرٍ فى أخضر وسط مُبْيَضّ
كأذيال خود أقبلت فى غلائل   مصبّغة ، والبعضُ أقصَرُ من بعض

ونجد هذا الجرىَ وراء ما هو غير مألوف من المعانى الجديدة يتمشى فى الشعر

(١) نفس المصدر ص ١٢٢ .   (٢) ديوان أبى نواس ص ٨ .
(٣) الديوان ج ٢ ص ٦٢٢ .   (٤) العمدة ج ٢ ص ١٨٤ .

العربى طول القرن الرابع الهجرى ؛ وهو قد أيقظ جميع حواس الشاعر ونبّهها تنبيها كبيراً ، ليستخرج أعمق ما فى باطن الأشياء من أسرار ، وليكشف عن أغرب خصائصها . وأول ما نلاحظه أن الشعر لم يكن له بدّ من أن يقوم مقام الفن التصويرى ؛ فالكثير مما يعبر عنه الشعر ما هو إلا تصوير ورسم لما تجيش به نفس الشاعر ويضطر إلى إبرازه فى صورة من الألفاظ . وقد قويت فى الشعراء رغبة عظيمة فى النظر بأعينهم ، وقامت فى نفوسهم حاجة إلى النظر فى الأشياء نظرة فنية ، وإلى الإبانة عنها إبانة توضحها لهم . وهذا ما لم يعرفه العرب الأولون ؛ فقد كان فنهم فنّا لغويا أداته الألفاظ . وقد اتصل العرب بشعوب أخرى تختلف عنهم اختلافا تاما ؛ وقد كان لهذه الشعوب فنونٌ غير الفنون الكلامية ، ولكن العرب لما غلبوا عليهم علوهم الكلام لا التصوير ، أى إنهم وضعوا فى أيديهم القلم بدلا من ريشة الرسام المصوِّر ؛ ولما آل الأمر إلى هذه الشعوب وأصبحت هى القابضة على زمام الفن الأدبى ، زاد الشعر التصويرى زيادة كبيرة ، بعد أن لم يجد أبو تمام ما يصلح للاختيار فى باب الأوصاف حتى يذكره فى ديوان الحماسة إلا بضعة عشر بيتاً . وكان شعراء العرب القدماء قد اختصروا دائماً فى وصف الطبيعة المحيطة بهم بنوع خاص ، وكانوا منذ القدم يذكرون شيئاً من وصفها فى شعر الشراب ، وخصوصا فى وصف الأيام الممطرة المُدْجِنة التى كان يحلو لهم فيها الشراب عادة ؛ أما الشعراء المتأخرون فقد جاءوا فى هذا الباب بأدق التشبيهات ؛ فيقول ابن الرومى مثلا[1] :

يومُنا مُدْجِنٌ يومُ سرور ... والتـذاذٌ ونعمةٌ وابتهاجُ

---

(١) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٠ .

ذو سماء كأدكن الخز قد غيـــمت وأرض كأخضر الديباج

ويقول الوزير أبو محمد المهلبي[1] :

يوم كأن سماءه شبهُ الحصان الأبرش

وكأن زهرة روضــه فُرشت بأحسن مفرش

فسماؤه دكن الخزوز وأرضه حصر الوشى .

وكان القدماء يفضلون الشراب فى الليل أو عند طلوع الفجر الأول ، فى الوقت الذى قال فيه ابن المعتز[2] :

حان ركوع أبريق لكأس ونادى الديك حىّ على الصبوح

وكذلك قال أبو نواس فى قصيدتين به شيئاً من هذا ، فمن ذلك[3] .

قد هتك الصبحُ ستورَ الدجى فانحسرت أثوابه الجون

فأصبح نداماك سخاميـــة أنى لها فى دنّها حين

وبعد ذلك بنحو قرن نجد ابن المعتز قد جاء فى هــذا بالكثير المتنوع فمن ذلك قوله[4] :

---

(١) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٠ . (٢) الديوان ج ٢ ص ٣٦ .

(٣) ديوان أبى نواس ص ٣٤٩ ؛ وقد افتتح أبو نواس إحدى خمرياته بما هو أكثر تواضعاً :

طاب الزمان وأورق الأشجار ومضى الشتاء وقد أتى آذار

وكسى الربيع الأرض من أنواره وشيا تحار لحسنه الأبصار (ص ٢٩٠)

أما كلامه بعد ذلك عن الجنان الخضراء وغناء الأطيار فلا يتمشى مع بقية القصيدة ، ولعله من وضع المتأخرين ؛ ومن هــذا القبيل ما نسبه المسعودى (مروج الذهب ج ٨ ص ٤٠٧ — ٤٠٩) لأبى نواس من قتال بين الأزهار فى قصيدة له ؛ فهو لا يوجــد فى الديوان ، وأصله يرجع إلى المتأخرين .

(٤) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٣٢ .

قم يا نديمي نصطبح بسواد   قد كاد يبدو الصبح أو هو باد
وأرى الثريا في السماء كأنها   قدم تبدت في ثياب حداد

وقوله[1] :

قد بدت فوق الهلال كرته   كهامة الأسود شابت لحيته

على أنه في عصر ابن المعتز نفسه بدأ الناس ينصرفون عن الشراب في هذا الوقت الغريب ، وابن المعتز يصفه أحيانا بعدم الملاءمة ، فمن ذلك قوله[2] :

إذا أردت الشرب عند الفجر   والنجم في لجة ليل يسرى
وكان برد بالنسيم يرتعد   وريقه على الثنايا قد جمد
وللغلام ضجرة وهمهمه   وشتمة في صدره مجمجمه
يمشى بلا رجل من النعاس   ويدفق الكأس على الجلاس
أعجل من سواكه وزينته   وهيئة تنظر حسن صورته
فجاءهم بفروة اللحاف   محلولة في الثوب والأعطاف
في الصبوح يعرف   على الغبوق والظلام مسرف

وعند ابن المعتز نفسه نجد الشعور بجمال الطبيعة والتمتع به يظهر قويا في الخمريات ؛ فقد بدأ أصحاب الشراب يتمتعون بجمال الجنان والأشجار ، ويشربون بين الورد والنرجس والجلنار والأقحوان وغناء الطيور ، وذلك كله في الربيع « وموسم الحياة »[3] .

---

(١) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ١١٠ .
(٢) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ١١٣ .
(٣) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٣٤ ، ٥١ ، ١١٠ — ١١١ .

وفى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى نبغ شاعران شاميان ، وكانا صديقين ؛ فأنشآ قصائد تغنّيا فيها بالبساتين وما لها من جمال دانى القطوف متنوع النواحى يخلب الألباب ، و بلغا بذلك الشعر إلى الذروة .

أما أولهما فهو أبو بكر محمد بن أحمد الصنوبرى[1] . ولد هذا الشاعر بأنطاكية ؛ وكان أميناً على خزانة كتب سيف الدولة[2] . ويدل لقبه ، « الصنوبرى » ؛ على أنه هو أو أباه كان يتجر فى خشب الصنوبر[3] . ولما كان المخروط الشكل يسمى الصنوبرى تشبيهاً له بحمل شجرة الصنوبر[4] ، فقد يجوز أن يكون هذا الشاعر لقب بهذا اللقب على سبيل الإشارة إلى صفته وصورته . وله لقب آخر هو « الصينى » ، وليس فى هذا ما يدعونا إلى الظن بأنه ذهب إلى الصين ؛ فقد كان بالكوفة مثلا رجلٌ يسمى الصينى ، لأنه كان يتجر إلى الصين ، فَنُسب إليها[5] . وقد مات الصنوبرى فى عام ٣٣٤هـ — ٩٤٥م[6] ، وهو يناهز الخمسين على الأقل[7] . ونعرف من حياته أنه كان صديقاً للشاعر

---

(١) هكذا فى الفهرست ص ١٦٨ ، وعند أبى المحاسن (ج ٢ ص ٣١٢ تحت عام ٣٢٤) : أحمد بن محمد بن الحسن الضبى الحلبى ؛ وعند ياقوت (ج ٢ ص ٣١١) : محمد بن مزار ، وعند الكتبى (ج ١ ص ٦١) : أحمد بن محمد .

(٢) مطالع البدور للغزولى ج ٢ ص ١٧٦ .

(٣) يذكر ابن حوقل (ص ١٢١) أنه كان على شط البحر مكان يعرف بحصن التينات فيه مقطع لخشب الصنوبر الذى كان ينقل إلى مصر والشام والثغور . ويقول الشريف الإدريسى (نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق طبعة برامل ص ٢٣) إنه كان لبيروت فيضة أشجار صنوبر مما يلى جنوبيها تتصل إلى جبل لبنان ، وتكسير هذه الفيضة اثنا عشر ميلا فى مثلها .

(٤) مفاتيح العلوم للخوارزمى ص ٢٠٧ .

(٥) معجم البلدان لياقوت ج ٣ ص ٤٤٤ .

(٦) أبو المحاسن ج ٢ ص ٣١٢ .

(٧) معجم البلدان لياقوت ج ٣ ص ٦٦٥ .

كشاجم ، وأن كشاجم وصفه بأنه « بحرٌ ما له شطٌّ[١] » ، وأنه طلب يد ابنته[٢] ، وعزاه عن فقد ابنة أخرى له تُوفِّيت بكراً[٣] .

وقد تغنى كثيراً بذكر حلب والرقة ، وهما أكبر بلدين كانا مقراً لسيف الدولة . على أنه سكن الرُّها ، وكان يجتمع فى دكان ورّاق يقال له سعد بكثير من أدباء الشام ومصر والعراق[٤] . وكانت له بمدينة حلب حديقة بها قصر تم حوله الغروس والرياحين وشجر النارنج[٥] ، ولذلك يسمى الحلبي . وكان الصنوبرى صغيراً فلم يَنَلْ مكاناً فى كتاب الأغانى ، وكان مسنًّا فلم يَنَلْ مكاناً فى يتيمة الدهر ؛ ولذلك بقى ديوانه مفرقاً ، ولم يوجد منه إلا أجزاء صغيرة ؛ وإنْ كان الصولى قد رتّبه على حروف الهجاء ، وجمعه فى مائتى ورقة[٦] ؛ فلا بد أن تُجمع بقاياه من كل ناحية . يقول الصنوبرى فى وصف سرير من الشقيق أحاط به ورد أبيض[٧] :

قد أحدق الورد بالشقيق خــلال بستانك الأنيق
كأن حــــوله وجوه مستشرقات إلى حريق

ويقول[٥] :

وكأنّ محمّرّ الشقيـ ـق إذا تصوّب أو تصعّد

---

(١) ديوان كشاجم طبعة بيروت ١٣١٣ هـ ، ص ١١٦ .
(٢) نفس المصدر ص ٧٤ وما بعدها .
(٣) نفس المصدر ص ٧١ وما بعدها .
(٤) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٢٣ .
(٥) ديوان كشاجم ، ٧٤ .
(٦) الفهرست ص ١٦٨ .
(٧) كتاب الديارات ص ١٩٧ .

أعـــلامُ ياقوت نُشر ن على بساط من زبرجد

ويقول(١) :

يا ريم قومى الآن ، ويحك ! فانظرى ما للرُبى قد أظهرت إعجابها
كانت محاسن وجهها محجوبة فالآن قد كشف الربيع حجابها
وَرْدٌ بدا يحكى الخدود ونرجس يحكى العيون إذا رأت أحبابها
ونبات باقلاء يشبـــه نوْرُه بلقَ الحمام مُشيلة أذنابها
والسرو تحســـبه العيون غوانيا قد شمرت عن سوقها أثوابَها
وكأن إحـداهن من نفح الصبا خـودٌ تلاعب موهنا أترابها
لو كنتُ أملك للرياض صيانة يوما لما وطئ اللئام تربها

ويعتبر الصنوبرىُّ النرجسَ ملـكا للأزهار ، فمن قوله فى النرجس(٢) .

أرَأَيتَ أحسن من عيون النرجس أم من تلاحُظِهن وسط المجلس
درر تشقَّق عن يواقيت على قضب الزمرد فوق بسط السندس
أجفان كافور حففن بأعين من زعفران ناعمات الملمس
فـكأنها أقمار ليل أحدقت بشموس أفق فوق غصن أملس

والنرجس هو أعظم أزهار الشام ، وهو الذى يجعل مراعيها بيضاء ناصعة(٣) .

---

(١) فوات الوفيات للـكتبى ج ١ ص ٦١ ؛ وكتاب من غاب عنه المطرب للثعالبى ، طبعـة بيروت ١٣٠٩ هـ ، ص ٢٥ .

(٢) فوات الوفيات للـكتبى ج ١ ص ٦١ طبعة القاهرة ١٢٩٩ هـ .

(٣) رحلة ناصر خسرو (سفر نامه) ص ٣٩ من ترجمة شيفر (Schefer) . بعـد ذلك يذكرنا ناصر خسرو بجزيرة النرجس التى فى طرابلس الشام .

وكذلك وصف هذا الشاعر معركة بين الأزهار فقال[١] :

خجل الوردُ حين لاحظه النر   جسُ من حسنه وغار البهار
فَعَلَتْ ذاك حمرةٌ وعَلَتْ ذا   صفرةٌ واعترى البهارَ اصفرارُ
وغدا الأقحوان يضحك عجباً   عن ثنايا لثامهن نضار
ثم نمّ النمّام واستمع السو   سن لما أذيعت الأسرار
عندها أبرز الشقيق خدودا   صار فيها من لطمه آثار
سكبت فوقها دموع من الطل   كما تسكب الدموع الغزار
فاكتسى البنفسج الغض أثوا   ب حداد دخانها الاصطبار
وأضرّ السقام بالياسمين الغـ   ـض حتى آذى به الإضرار
ثم نادى الخيرى فى سائر الزهـ   ـر فوافاه جحفل جرّار
فاستجاشوا على محاربة النر   جس بالجحفل الذى لا يبار
فأتوا فى جواشن سابغات   تحت سجف من العجاج يثار
ثم لما رأيت ذا النرجس الغـ   ـض ضعيفاً ما إن لديه انتصار
لم أزل أعمل التلطُّف للور   د حذاراً أن يُغلب النوّار
فجمعناهمو لدى مجلس فيـ   ـه تغنى الأطيار والأوتار
لو ترى ذا وذا لقلت خدود   تدمن اللحظ حولها الأبصار

---

(١) فوات الوفيات ج ١ ص ٦١ ؛ وينسب المسعودى (ج ٨ ص ٤٠٧) لأبى نواس قصيدة يصف فيها قتالا بين الزهور حيث نجد الزهور الحمراء مثل الورد والجلنار وتفاح لبنان تحارب الأزهار الصفراء مثل النرجس والبهار والأترج . وهذه النسبة لا يمكن أن تكون صحيحة لأسباب يقتضيها النقد الداخلى . ولا نجد هذه القصيدة فى نسخة الديوان التى طبعت ببيروت ، ولا يمكن أن تكون هذه القصيدة من قول الصنوبرى المذكور بالطبع ؛ لأن الورد فيها يفضل على النرجس

وفى القرن الثالث وصف البحترى بركة فى دار الخلافة فقال :

تنصبّ فيها وفود الماء مُعْجَلةً ... كالخيل خارجةً من حبل مجريها
كأنما الفضة البيضاء سائلة ... من السبائك تجرى فى مجاريها
إذا النجوم تراءت فى جوانبها ... ليلاً حسبت سماء ركبت فيها
لا يبلغ السمك المحصور غايتها ... لِبُعْد ما بين قاصيها ودانيها
يَعُمْن فيها بأوساط مجنحة ... كالطير تنقضّ فى جو خوافيها[1]

والآن نجد الصنوبرى يشبّه بركة بموضع يصفه ، تشبيها لا يخلو من تطرف ومبالغة ، فيقول[2] :

هى الجو من رقة غير أن ... مكان الطيور يطير السمك

ولكن لما كان الصنوبرى شاعراً وصّافاً الجنان فهو يقول فى تلك القصيدة :

وقد نظم الزهرُ نظم النجوم ... فمفترق النظم أو مشتبك

وكان الصنوبرى ، وهو أول شاعر الطبيعة فى الأدب العربى ، يجمع إلى ذلك ولوعاً شديداً بالسماء والضياء والهواء مع التطلع إلى أسرارها الجميلة ، فهو يقول فى إحدى أغانى الربيع[3] :

إن كان فى الصيف ريحانٌ وفاكهة ... والأرض مستوقد والجو تنُّور
وإن يكن فى الخريف النخل مخترقاً ... فالأرض عريانة والجو مقرور

(١) ديوان البحترى ج ١ ص ١٧ .
(٢) الحصرى على هامش العقد ج ١ ص ١٨٣ .
(٣) فوات الوفيات للكتبى ج ١ ص ٦١ ، وتز انظم ص ١٤٥ .

وإن يكن فى الشتاء الغيث متصلا   فالأرض محصورة والجو مأسور
ما الدهر إلا الربيع المستنير إذا   جاء الربيع أتاك النوْر والنُّور
والأرض ياقوتة والجو لؤلؤة   والنبت فيروزج والماء بلّور
تبارك الله ! ما أحلى الربيع ! فلا   تغرر فقايسُه بالصيف مغرور
من شم طيب جنيات الربيع يقل   لا المسك مسك ولا الكافور كافور

وكان أول من تغنى بالقصائد الثلجيات ، ومن ذلك قوله[1] :

ذهّب كؤوسك يا غلا   م فإنه يوم مفضّض
والجو يُجلى فى البيا   ض وفى حلىّ الدرّ يعرض
أنظن ذا ثلجاً وذا   ورد على الأغصان ينفض
ورد الربيـــع ملون   والورد فى كانون أبيض

وقد ترك الصنوبرى آثاراً قوية فى الأدب العربى ، وقد ظهر أول أثر له عند كشاجم[2] شريكه فى الوطن وصديقه الحميم ؛ وقد عبّر كشاجم عن هذه الصداقة بقوله[3] :

أتنسى زمنّا كنا   به كالماء فى الخمر
أليفـــيْن حليفــيْن   على الإيســار والعسر
مكبّيْن علـــى اللذّا   ت فى الصحو وفى السكر

---

(١) نثر النظم للثعالبي طبعة دمشق ١٣٠٠ هـ ، ص ١٣٧ .
(٢) كان كشاجم شاعراً كاتباً ؛ وإلى جانب ذلك كان منجما وصاحب مطبخ لسيف الدولة ، (انظر ديوانه ويتيمة الدهر ج ٤ ص ١٠٧) .
(٣) ديوان كشاجم ص ٧٤ .

نرى في فلك الآدا ب كالشمس وكالبدر

وقد سار كشاجم في شعره على الطريق الذى رسمه صديقه الصنوبرى ، فاقتدى به ، في التغنى بلذات العين ، فمن ذلك قول كشاجم(١) :

أقبلت في غـلالة زرقاء زرقة لقيت بجرى الماء
فتأملت في الغلالة نهبًا جسد النور في قميص الهواء
هي بدر ، وإنّ أحسن لون ظهر البدر فيه لون السماء

وهو يصف مليحة في لباس حداد بقوله :

في حداد كأنها وردة في بنفسج

ويقول في غلام :

كلف الفؤاد بشادن أبصرته في مأتم يبكى بطرف أدعج
ما زال يخمش خده ببنانه حتى تنقّب ورده ببنفسج(٢)

وقال يتغزّل في نهر قويق بحلب(٣) :

والأرض تكسى بزهرال رياض وشيا معمد
كأنّ خرّد عينا بها يضاحكن خرّد

. . . .

وحمرة في شقيق وخضرة في زبرجد

---

(١) ديوان كشاجم ص ٦ .
(٢) نفس المصدر ص ٢١ ، ٢٢ .
(٣) نفس المصدر ص ٤٨ وما بعدها .

وأقحوان كعقد من لؤلؤ قد تبدد
والنرجس الغض يرنو إلى البهار المنضد
كما أشار حبيب إلى حبيب بموعد
والنهر بين اعتدال من سيره وتأود
كأفعوان التوى ثم استوى وتمدد
كأن فيه سيوفاً مهندات تجرد
فتارة هى تنضى وتارة هى تغمد
كأن لنيلوفر النهر فيه سراج توقد
طورا تضيء وطوراً بشدة الريح تخمد

وهو قد قال في وصف نيل مصر[1] :

كأن النيل حين أتى بمصر وفاض بها وكسرت القراع
واحدق بالقرى من كل وجه سماوات كواكبها ضياع

وكذلك نظم قصائد في وصف الثلج منها قصيدة أولها :

الثلج يسقط أم لجين يُسبك أم ذا حصا الكافور ظل يفرك

على أنه في هذه القصيدة قال ما يدل على عدم انصقال الذوق ، ومن ذلك قوله في وصف الثلج :

راحت به الأرض الفضاء كأنها من كل ناحية بثغر تضحك[2]

(١) كتاب الديارات ص ١١٥ ا .
(٢) ديوان كشاجم ص ١٤ .

وكان لكشاجم كثير من المعجبين ، وقد قال أحدهم :

يا بؤس من يُمنى بدمع ساجم ... يهمى على حجب الفؤاد الواجم
لولا تعلله بكأس مدامة ... ورسائل الصابى وشعر كشاجم[(١)]

وكان كشاجم يلقب فى منتصف القرن الرابع الهجرى « ريحانة أهل الأدب » فى بلاد الموصل ؛ وكان الخالديّان : أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ابنا هاشم شاعرين كبيرين فى الموصل ؛ وكان بهذه المدينة من الشعراء السرىّ بن أحمد الكندى المعروف بالرفّاء . وكلهم — رغم ما كان بينهم من تنابز وعداوة وكيد — كانوا يسيرون فى طريق كشاجم ، وينهجون منهجه . وكان السرىّ يشنّع على الخالديّين ويغض منهما ؛ فكان ينسخ ديوان كشاجم ، ويدسّ فيه أحسن شعر الخالديّين ، ليزيد فى حجم ما ينسخه من شعر كشاجم ، ويُظهر صدقَ ما يدعيه على الخالديّين من سرقة شعره ، ولذلك يقول الثعالبى : « فمن هذه الجهة وقعت فى بعض النسخ من ديوان كشاجم أشعارٌ ليست فى الأصول المشهورة منها ، وقد وجدتها كلها للخالديين »[(٢)] .

وكان أبو الحسن محمد بن عبد الله السلامى (المتوفى عام ٣٩٤ هـ — ١٠٠٤ م) من أشعر أهل العراق ؛ وورد الموصل صبياً ، فوجد بها أبا عثمان الخالدى وشيوخ

---

(١) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٧٤ .

(٢) اليتيمة ج ١ ص ٤٥٠ — ٤٥١ . ومن رسائل الصابى رسالة بعث بها إلى الخالديين برّأ فيها نفسه مما طالباه به من مساعدة السرى على عداوتهما والرضا بطعنه عليهما . وقال فيها أيضاً إن السرىّ سأله استماع شعر مدحه به ، فلم يجبه إلى ذلك إلا بعد أن شرط عليه ألا يعرض فى ذلك لذكر الخالديين بسوء ولا غمز . ويذكر الصابى أيضاً أن السرى أحضر جملة من شعره فيها أشعار الخالديين ، فأخرج ما عنده من نسخ لشعرهما ، وأنكر السرى عليهما ليثبت أنها ليست له : انظر رسائل الصابى مخطوط ليدن ص ٧٤ ا — [illegible] .

الشعراء ، فعجبوا منه ، واتهموه بأن الشعر ليس له ، فاتخذ الخالدى دعوة ، وجمع الشعراء ، وحضر السلامى معهم ؛ فلما توسطوا الشراب أخذوا فى ملاحاته والتفوق على قدر بضاعته ، ثم لبثوا حتى جاء مطر شديد وبَرَدٌ ستر الأرض ، فألقى أبو عثمان نارنجا كان بين أيديهم على ذلك البَرَد ، وقال : يا أصحابنا هل لكم فى أن نصف هذا ، فقال السلامى ارتجالا[1] .

لله درّ الخــــالدىّ   الأوحد النَدْب الخطير
أهــدى لمـاء المزن عنــــد جموده   نار الســعير
حتى إذا صــدر العتا   ب إليه عن حنق الصدور
بعثت إليــــه بعذره   من خاطرى أيدى السرور
لا تعــــــذلوه فإنه   أهدى الخدود إلى الثغور

وقال أحد الخالديين فى وصف الفجر[2] :

أرعى النجوم كأنها فى أفقها   زهر الأقاحى فى رياض بنفسج
والمشـترى وسط السماء تخاله   وسناه مثل الزئبق المترجرج
مسمار تبر أصــــفر ركبته   فى فص خاتم فضـة فيروزج
وتمـايل الجوزاء يحكى فى الدجى   ميلانَ شارب قهوة لم تمزج
وتنقبت بخفيف غيم أبيض   هى فيــه بين تخفز وتبرج
الحسناء فى المرآة إذ   كملت محاسنها ولم تتزوج

---

(١) يتيمة الدهر ج ٢ ص ١٥٧ — ١٥٨ .
(٢) نفس المصدر ج ١ ص ٥١٤ .

ويقول أيضاً[١] :

ومدامة صفراء في قارورة   زرقاء تحملها يد بيضاء
فالراح شمس والحباب كواكب   والكف قطب والإناء سماء

وكان الوزير المهلبي شاعراً في مرتبة أرق من مرتبة الطبقة الوسطى من الشعراء ؛ وقد أنشأ مجلساً حافلا للأدباء ، وكان يحب الطبيعة والشراب ، فنشر طريقة الصنوبري ببغداد . ويحدثنا الصاحب بن عباد في كتاب الروزنامجة ، وهو يوميات رحلته إلى بغداد ، أن الوزير المهلبي كان كثير الإنشاد لشعر الصنوبري[٢] ؛ بل نجد المهلبي ينسج على منوال أستاذه ، فيصف الثلج ، وهو من الأعاجيب ببغداد ، ومن ذلك قوله[٣] :

الورد بين مضمّخ ومضرّج   والزهر بين مكلّل ومتوّج
والثلج يهبط كالنثار ، فقم بنا ا   نلتذّ بابنة كرمة لم تمزج

وكذلك يقول القاضي التنوخي — وكان من ندماء المهلبي — متأثراً بطريقة الصنوبري في وصف امرأة مسها خجل ، وقد بدت في رداء معصفر[٤] .

لم أنسَ شمس الضحى تطالعني   ونحن من رقبة على فرق
وجفن عيني بدمعه شرق   لما بدت في معصفر شرق

(١) نفس المصدر ص ٥١٩ .

(٢) يتيمة الدهر ج ٢ ص ١٢ .

(٣) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٠ ؛ وتجد قصيدة أخرى للمهلبي في كتاب من غاب عنه المطرب الثعالبي ، طبعة بيروت ١٣٠٩ هـ ، ص ٤٨ .

(٤) الإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٣٣٨ .

كأنه أدمى ووجنتها لما رمتنا الوشاة بالحدق
ثم تنطت بكفها خجلا كالشمس غابت فى حمرة الشفق

ويقول[1] :

لم أنس دجلة والدجى متصوّب والبدر فى أفق السماء مغرب
فكأنها فيه بساط أزرق وكأنه فيها طراز مُذهب

وإذا وجدنا سيف الدولة صاحب حلب يشبه نار الكانون والرماد بوجنة عذراء مسها خجل فاستترت بحجاب أشهب ، فهو يرى ذلك بعين الصنوبرى[2] . وكذلك الواثق يتأثر بالصنوبرى حين يصف نار فم القضا بقوله[3] :

وليلة شاب بها المفرق قد جد الناظر والمنطق
كأنما فم القضا بيننا والنار فيه ذهب محرق
أو سبج فى ذهب أحمر بينها نيلوفر أزرق

ولما قال الصاحب بن عبّاد بخراسان أواخر القرن الرابع فى الثلج :

هات المدامة يا غلام معجلا فالنفس فى قيد الهوى مأثورة
أو ما ترى كانون ينثر ورده وكأنما الدنيا به كافورة

---

(١) يتيمة الدهر ج ٢ ص ١٠٩ والإرشاد ج ٥ ص ٣٣٥ .

(٢) يتيمة الدهر ج ١ ص ٢١ :

كأنما النار والرماد معا وضوؤها فى ظلامه يحجب
وجنة عذراء مسها خجل فاستترت تحت عنبر أشهب

(٣) اليتيمة ج ٤ ص ١١٣ .

لا حظ أبو بكر الخوارزمى أن هذه وأمثالها من الثلجيات كلها عيال على قول الصنوبرى[١] .

وكان الشريف أبو الحسن العقيلى بمصر حوالى عام ٤٠٠ هـ يمثّل طريقة الصنوبرى فى الوصف ، وكان من أكبر المبرزين فى هذا الباب ، « وكان له متنزهات بجزيرة الفسطاط ، ولم يكن يشتغل بخدمة سلطان ولا يمدح أحداً »[٢] ، ومن شعره[٣] :

ونهر من الأنهار ألقت يد الصبا عليه شقيقاً ناره تتضرّم
كأن ابيضاض الماء تحت احمراره صفيحة سيف قد جرى فوقها الدم

وقد أهمل وصف المسموعات إهمالا شديداً ؛ فمثلا وصف السلامى الشاعر (المتوفى عام ٣٩٤ هـ — ١٠٠٤م) السِكْر المبنى بشيراز من غير أن يذكر شيئاً عن خرير المياه أو صوتها[٤] ؛ ولم أجد من هذا القبيل إلا مثالا فى شعر للأمير البويهى عز الدولة ، وهو قوله فى سياق قصيدة له[٥] ، وصف فيها مجلساً على شاطئ دجلة :

والماء ما بين الغصون مصفق مثل القيان رقصن حول الزامر

وفى أواخر القرن الرابع الهجرى أولع الأدباء بوصف جميع الأشياء على اختلافها ، فنجد وصف الميزاب إلى جانب وصف الشاعر صورته فى المرآة[٦] ،

---

(١) نفس المصدر ج ٣ ص ٩٥ .
(٢) المغرب لابن سعيد ص ٥٢ .
(٣) نفس المصدر ٧٨ .
(٤) يتيمة الدهر ج ٢ ص ١٧٨ — ١٧٩ .
(٥) نفس المصدر ج ٢ ص ٥ .
(٦) كما فعل القصار الشاعر المعروف بصريع الغلماء المتوفى عام ٤١٠ هـ . انظر تتمة اليتيمة للثعالبى مخطوط فيينا رقم ٦٦٨ ص ٢٨ ب (؟)

وذلك إرضاء لرغبة الناس فى المُستَحْدَث . وقد وصف المأمونى الشاعر ببخارى جميع أصناف الأطعمة من جبن وزيتون والسمك المشوى وماء الخردل والبيض المفلق والفالوذج والهريسة وغيرها كثير[1] . وقال أبو العباس الفضل بن على الأسفراييني من كور نيسابور فى وصف شمعة نصبت فى بركة :

وشمعة وسط أيمن البرك تميس فى الماء ميس مرتبك
كأنها البدر فى السماء سرى فحار فى أوجه الفلك

وقال فى فوّارة أقلت تفاحة :

وفوارة سائل ماؤها بتفاحة مثل خد العشيق
كنفخة من رقيق الزجا ج تُدار بها كرة من عقيق[2]

وقال عبد الوهاب بن حسن بن جعفر الحاجب الشاعر المصرى (المتوفى عام ٣٨٧ هـ — ٩٩٧ م) فى وصف الهرمين[3] :

أنظر إلى الهرمين إذ برزا للعين فى علو وفى صعد
وكأنما الأرض العريضة قد ظمئت لطول حرارة الكبد
حسرت عن الثديين بارزة تدعو الإله لفرقة الولد
فأجابها بالنيل يشبعها ريّا وينقذها من الكمد

ومما هو عظيم الدلالة أننا لا نجد فى الشعر العربى مكانا للمكدّين الطوّافين

---

(١) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٩٤ — ١١٢ .
(٢) نفس المصدر ص ٣١٦ .
(٣) الخطط للمقريزى ج ١ ص ١٢١ .

قبل القرن الرابع ، فن ذلك قول الأحنف العكبرى مفتخرا[١] .

على أنى بحمد الـلـه فى بيت من المجد
بإخوانى بنى ساسا ن أهل الجد والجد
لهم أرض خراسا ن فقاشان إلى الهند
إلى الروم إلى الزنج إلى البلغار والسند
إذ ما أعوز الطرق على الطراق والجند
حذاراً من أعاديهم من الأعراب والكرد
قطعنا ذلك النهج بلا سيف ولا غمد
ومن خاف أعاديه بنا فى الروع يستعدى

وقد دخل فى الأدب على أيدى المكدّين شعر حر مُزْهِر ترنموا به ، كما دخل الشعر العاطفى الغنائى المرح الذى لا تكلُّف فيه . وأكبر شعراء المكدين وظريفهم هو الأحنف العكبرى ، من مدينة عكبرى بالعراق ؛ وهو لم يعبأ فى خمرياته بوصف شىء من جمال الطبيعة الذى يلتذ منه الشعراء ، فمن قوله[٢] :

شربت بماخور على دف وطنبور
وصوت الطبل كردم وصوت الناى طيّر
فصرنا من حمى البيت كأنا وسط تنور

(١) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٨٥ — ٢٨٦ .

(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٨٧ ، ويروى عن الخليفة المعتمد أنه قال :

ويمضى الأمير أبو أحمد ويضرب بالطبل كردم كدم

(انظر كتاب الديارات ص ٤٢ ب) .

وصرنا من أذى الصفـــع كمثل العمى والعور
لقد أصبحت مخموراً ولكن أىّ مخمور

وقال يصف آلام المكدين[1] :

عشت فى ذلّة وقلة مال واغتراب فى معشر أنذال
بالأمانى أقول لا بالمعانى فغذائى حلاوة الآمال
لى رزق يقول بالوقف فى الـــرأى ورجل تقول بالاعتزال

وقال :

العنكبوت بنت بيتاً على وهن تأوى إليه ومالى مثله وطن
والخنفساء لها من جنسها سكن وليس لى مثلها إلف ولا سكن

ولا نجد فى هذا الشعر صناعة لفظية ولا زخرفة ولا عبارات من التى تجرى مجرى الأمثال أو الحكم . هذا هو الأسلوب الذى جرى عليه الأدب الفرنسى من عهد ڤيلون Villon إلى عهد فرلين Verlaine . وقد جرى على هذه الطريقة الشاعر محمد بن عبد العزيز السوسى ، أحد شياطين الإنس ؛ فقد قال قصيدة تربى على أربعمائة بيت ، وصف فيها حاله وتنقله فى الأديان والمذاهب والصناعات وقد افتتحها بقوله :

الحمد لله ! ليس لى بختٌ ولا ثيابٌ يضمّها تخت[2]

---

(١) اليتيمة ج ٢ ص ٢٨٦ ، وكتاب الإعجاز للثعالبى ص ٢٣٦ ، وكتاب ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب للمؤلف نفسه ص ٣٤٢ .

(٢) تجد القصيدة كاملة فى اليتيمة ج ٣ ص ٢٣٧ .

وإلى جانب هذا الشاعر نجد الشعراء الشعبيين الذين ظهروا فى مدن العراق الكبرى مثل أبى الحسن محمد بن لَنْكَك البصرى ، « وما أشبه شعره فى الملاحة وقلة مجاوزة البيتين والثلاثة إلا بشعر كنيّه أبى الحسن بن فارس . . إذا قال البيت والبيتين والثلاثة أغرب بما جلب وأبدع فيما صنع ؛ وأما إذا قصد القصيد فقلما يفلح وينجح[1] » ؛ وابن سكرة الذى كان شاعراً متّسع الباع ، إذ يقال إن ديوانه يربى على خمسين ألف بيت ، منها أكثر من عشرة آلاف بيت قالها فى قينة سوداء يقال لها خمرة[2] .

وكان أكبر هؤلاء الشعراء الشعبيين غير منازع ابن الحجاج الذى كان ببغداد ، وتوفى عام ٣٩١ هـ — ١٠٠١ م[3] . وكان نحيفاً ولذلك يقول[4] :

لا تخافى علىّ دقّة كشحى لا تكال الرجال بالقفزان

---

(١) اليتيمة ج ٢ ص ١١٦ — ١١٧ ؛ وقد جمع ابن لنكك ديوان عمر بن أحمد الخبازرزى البصرى الشاعر المتوفى عام ٣٣٠ هـ — ٩٤١ م (المنتظم لابن الجوزى ص ٧٠ ب) ؛ وكانت أشعار الخبز أرزى قصائد قصيرة فى الغزل ، وكانت حرفته خبز الأرز ، فكان يخبز وينشد أشعاره والناس يزدحمون عليه ليسمعوها ؛ وكان معظمها فى الغلمان ، وكان أحداث البصرة يتنافسون فى ميله إليهم وذكره لهم ، ويحفظون كلامه لقرب مأخذه وسهولته (يتيمة الدهر ج ٢ ص ١٣٢) . ويقول المسعودى عام ٣٣٣ هـ — ٩٤٤ م . (المروج ج ٨ ص ٣٧٤) « وأكثر الغناء المحدث فى وقتنا من شعره » . وكان الخبز أرزى محبوباً حتى بعد موته

(٢) اليتيمة ج ٢ ص ١٨٨ .

(٣) هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد ؛ توفى فى طريق النيل بالعراق ، وهو عائد منها ، فى ٢٧ جمادى الآخرة (وفى كتاب الوزراء ص ٤٣٠ لسبع بقين من سنة ٣٩١ هـ) ، ودفن إلى جانب قبر جعفر الصادق عجبة منه الشيعة ؛ وقد أمر أن يكتب على قبره : وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد (سورة الكهف آية ١٧) . انظر الهمذانى مخطوط باريس ص ٣٤٠ ب (؟) . وكان ساكن سوق يحيى ، وقد تغنى بها فى شعره (انظر معجم البلدان لياقوت ج ٣ ص ١٩٥) .

(٤) اليتيمة ج ٢ ص ٢٤٢ .

وقد قال مدافعاً عن نفسه ، لما خرج هارباً من غُرَمائه[1] :

هربت من وطنى إلى بلد قد صفر الجوع فيه منقارى

يقول قوم : فرّ الخسيس ، ولو كان فتى كان غير فرار

لا عيب لا عيب فى الفرار فقد فرّ نبى الهدى إلى الغار

ويظهر أنه قال فى ذلك الوقت العصيب هذين البيتين الآتيين مفتخراً[2] :

قد قلت لما غدا مدحى ، فما شكروا وراح ذمى ، فما بالوا ولا شعروا

حلّ نحت القوافى من معادنها وما حلّ إذا لم تفهم البقر

وكان ابن الحجاج لسخفه ورداءة لسانه يُخْشى الجانب ، مقضى الحاجة ، مقبول الشفاعة ؛ ولم يزل أمره يتزايد حتى حصّل الأموال ، وصار من أهل الجاه ؛ وقد قال ابن الحجاج نفسه لبعض الرؤساء ، حين كتب إليه يذكر أن سخفه جاوز التناهى :

سيدى ! سخفى الذى قد صار يأتى بالدواهى

أنت تدرى أنه يد فع عن مالى وجاهى[3]

وقد كان ابن الحجاج من أولاد العمال ، واشتغل بالكتابة فى أول أمره ، ثم ضمن فرائض الصدقات بسقى الفرات ، وصار أخيراً محتسباً على مدينة بغداد .

---

(١) نفس المصدر ص ٢٢٨ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٦٠ .

(٣) نفس المصدر ص ٢١١ ؛ وديوان ابن الحجاج مخطوط بغداد (مرجانة) نسخة المؤلف ص ٢٥٨ من ج ١٠ .

ولشدّ ما حسده ابن سكرة ، زميله فى المذهب الشعرى ، لأنه كان أقل نجاحاً من ابن الحجاج[١] .

وكان ابن الحجاج فى قصائده يستعمل عبارات المكدّين وأهل الشطارة[٢] . وقد أتاح هو وأمثاله فرصة لظهور الفحش المستبشع فى المدن الشرقية ، فرفع هذا الفحش رأسه بعد أن كانت قد أخمدته الروح العربية وأخرجته من الأدب العربى ؛ لأن الذى كان يسيطر على النزعة الأدبية هم البدو الذين هم أكثر عفة واعتدالا[٣] . وما أشبه ابن الحجاج برجل كانت تقيده سلطة خارجية ، فتحرر منها وانطلق فى السخف . وكان أساس مبالغته فى ذلك أنه أراد أن يتخذ من الإسراف فى الفحش طريقاً لمعارضة الشعراء الآخرين الذين كانوا يعالجون فى شعرهم الموضوعات الحسنة ؛ وهو يقول[٤] :

وشعرى سخفة لا بد منها ... فقد طبنا وزال الاحتشام

وهل دار تكون بلا كنيف ... فيمكن عاقلا فيها المقام

وهو يقول :

ترانى ساكناً حانوت عطر ... فإنْ أنشدتُ ثار لك الكنيف

---

(١) ديوان ابن الحجاج ج ١٠ ص ٢٤٠ ، وكتاب الوزراء ص ٤٣٠ واليتيمة ج ٢ ص ٢١٩ .

(٢) اليتيمة ج ٢ ص ٢١١ .

(٣) ولو أراد الإنسان أن يفحص عن أصل هؤلاء الخلعان الذين يجاهرون بالفحش لوجد أكثرهم يقال عنه مثل ما قيل عن ابن الراوندى (المتوفى عام ٢٩٨ هـ — ٩١١ م) : الماجن المنسوب إلى الهزل والزندقة ، وكان أبوه يهودياً فأسلم (أبو المحاسن ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة ليدن) .

(٤) اليتيمة ج ٢ ص ٢١٤ .

ومن قوله :

ومن كل يحوى العطرَ دكان شعره فإنى كنّاس وشعرى مخرج

ولهذا جاء فى كتاب فى الحسبة لمؤلف متأخر ما يقضى بمنع الصبيان من حفظ أشعار ابن الحجاج والنظر فيها وبضربهم على ذلك[١] . ولكن يظهر أن ابن الحجاج لم يلحقه عند معاصريه ضرر بسبب ذكره للقاذر وإفصاحه عن السخف والفحش والمجون . فمثلا كان الشريف الرضى نقيب العلويين وأكبر أصحاب المكانة فى الدولة العباسية من أكبر المعجبين بابن الحجاج والمتعصبين له ؛ وقد رثاه بقصيدة ، واختار من شعره السليم أشياء كثيرة . وقد حمل إليه الخليفة الفاطمى ، صاحبُ مصر عن مديح مدحه به ألف دينار مغربية على سبيل الصلة[٢] . ويُحكى أنه كثيراً ما بيع ديوان شعره بخمسين ديناراً إلى سبعين . وقد سأل العسكرى مُغَنِّى سيف الدولة ابن الحجاج أن يصنع شعراً ليغنّى به بين يدى سيده ، فألّف له شيئاً[٣] . ويقول ابن الحجاج نفسه[٤] .

لو جدّ شعرى رأيتَ فيه كواكب الليل كيف تسرى

وإنما هزله مجون يعيش به فى المعاش أسرى

وكان ابن الحجاج لا يبقى خلاّ أقواله إلا على سخف ، « ولم يُرَ كاقتداره على ما يريده من المعانى مع سلامة الألفاظ وعذوبتها » ؛ وكان لا يبالى بالوزن والقافية ؛ وقد حوى ديوانه كثيراً من الكلمات غير المعروفة أخذها من لغة العامة

---

(١) مجلة المشرق السنة العاشرة ص ١٠٨٥ .

(٢) كتاب الوزراء ص ٤٣٠ ، وديوان ابن الحجاج ج ١٠ ص ٢٣٢ .

(٣) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٢١٥ ، ٢٢٦ .

(٤) نفس المصدر ص ٢١٣ .

ببغداد فى القرن الرابع الهجرى[1] . وكان يعرف النماذج الشعرية المأثورة ، غير أنه يتجاهلها و يعارضها معارضة سخرية وهزل ، فما قاله عند موت سبكتكين .

واسق تبكى بفرد عين لفقد عينى سبكتكين

إلى أن قال :

ما لكتيف دفنت فيه لا زال يُسقى غيث البطون[2]

ولكنا نرى بين حين وآخر من خلال هذا الضباب الذى يتكون من السخف والمجون معانى وألفاظاً مثل كواكب الليل ، ونستطيع أن ندرك لماذا كان معاصرو هذا الماجن يعدونه شاعراً كبيراً .

أما المتنبى الذى يرجع أصله إلى العراق أيضاً ، والذى نشأ فى الشام ، فنجده يتمسك بطريقة العرب القدماء ، خلافاً لهؤلاء الشعراء[3] المحدثين .

---

(١) ومن أسف أنها لم تشرح إلا شرحاً جزئياً وذلك فى نسخة الديوان المحفوظة بالمتحف البريطانى .

(٢) ديوان ابن الحجاج مخطوط ببغداد ص ٨٠ ؛ ومخطوط دار الكتب المصرية رقم ٢٣٤٢ ص ٦١ — ٦٢ .

(٣) وكذلك كان الشاعران الشاميان أبو تمام (المتوفى عام ٢٣٠ هـ — ٨٤٥ م) والبحترى (المتوفى عام ٢٨٤ هـ — ٨٩٧ م) عاشا بين ، وقد نهجا طريق أسلافهما من شعراء دمشق وهم الفرزدق وجرير والأخطل . على أنه قد بلغ من الحس الشعرى عند البحترى أنه قال : إن أبا تمام أشعر من مسلم بن الوليد ، لأنه يتصرف فى كل طريق ، إن شاء جد وإن شاء هزل . ومسلم يلزم طريقاً لا يتعداه ؟ فقيل له إن مسلماً لا يوافقه فقال : ليس هذا من علم الطب وأضرابه ممن يحفظ الشعر ولا يقوله ، وإنما يعرف الشعر من دفع إلى مضايقه ؟ (انظر : Goldziher, Abhandlungen Zur arabischen Philologie S., 164, Anm. 4) على أنه كان بالشام شاعر مشهور هو أبو حامد أحمد بن محمد الأنطاكى المعروف بابن الرقيق المتوفى عام ٣٩٦ هـ . وقد تصرف بالشعر الهزل فى أنواع الجد والهزل ، وكان بالشام كابن الحجاج فى العراق (يتيمة الدهر ج ١ ص ٢٣٨ — ٢٦١) ؛ انظر للاستزادة من أخباره معاهد التنصيص مخطوط برلين رقم ٩٢٢٤ ص ١٥٦ أ .

كان أولئك الشعراء واقعيين فى نزعتهم الشعرية ، فكانوا يتغنون بما يرونه ويحسونه ويشاهدونه ؛ أما المتنبى فهو مثال الأستاذ العالم الذى يستهويه المعنى الكلى ؛ فمن ذلك أن رجلا خرج للصيد مرة ، وكان معه كلب فطرد به ظبياً ، ولم يكن معه صقر ، فاستحسن صيد الكلب ؛ وقال للمتنبى . وَدِدْنا يا أبا الطيب لو كنت معنا ! فقل له : أنا قليل الرغبة فى مثل هذا ؛ فقال له الرجل . إنما اشتهيت أن تراه ، فتستحسنه ، وتقول فيه شيئاً ؛ فأجاب المتنبى إنه يستطيع أن يفعل ذلك من غير أن يحضر الصيد أو يرى الكلب ؛ وقال قصيدة وصف بها الكلب وسرعته ، على الطريقة المأثورة[1] .

وكان المتنبى كثير الأخذ من ابن المعتز على تركه الإقرار بالنظر فى شعر المحدثين[2] . وقد عاداه شعراء العراق كابن سكرة وابن لنكك[3] ، وابن الحجاج[4] ، وحملوا على ثلبه والتحامل به والتنادر عليه ؛ وقد انتهى إلينا وصف محاورة جرت بينه وبين أحد الشعراء لما ورد المتنبى مدينة السلام . وتدل هذه المحاورة على سوء ما وقع بين المتنبى شاعر الملوك وبين أدباء بغداد ؛ ذلك أن المتنبى قدم إلى مدينة السلام ، وقد التحف رداء الكبر ، وصعّر خده ؛ فذهب إليه الحاتمى الشاعر ، فوجده يلبس سبعة أقبية ، كل قباء منها لون ، مع أن الوقت كان أحرّ أيام الصيف وأخلقها بتخفيف اللبس ؛ فأعرض المتنبى عنه ،

---

(١) ديوان المتنبى طبعة القاهرة ١٣١٥ هـ — ١٨٩٨ م ص ٩٧ — ٩٨ .

(٢) اليتيمة ج ١ ص ٩٨ .

(٣) نفس المصدر ج ١ ص ٨٥ — ٨٦ .

(٤) ديوان ابن الحجاج مخطوط ببغداد ص ٢٧٠ .

وتجاهله ، ولم يسأله عن قصده ، ثم كله الحاتمى وأغلظ له القول[١] .

وكذلك كان أبو فراس الشاعر الشامى (المتوفى عام ٣٥٧ ﻫ — ٩٦٨م) ينسج على منوال القدماء ، لم يحد عن ذلك قط . وأغرب ما نراه فيه قلة تعرضه فى قصائده ، أو بالأحرى أنه لم يرد أن يتعرض فى قصائده ، لذكر الحروب الشعواء التى كانت ناشبة فى غرب المملكة الإسلامية ؛ ونظراً لأنه كان ابن خال سيف الدولة الأمير الحمدانى ، فلا بد أن يكون قد ذاق الكثير من أثر حوادث ذلك العصر ، وإن كان الكثير من شعره فى الفخر ليس إلا خيالا لا حقيقة وراءه . وقد يستحيل على من لم يكن ملما بحوادث ذلك العصر أن يستنبط من قصائده أن الروم والمسلمين والنصارى كانوا يتحاربون بجيوش جرّارة مسلحين بأكمل سلاح حربى عرفه ذلك العصر ؛ ولا يزيد وصفه لهذه الحروب الكبيرة فى شعره عما يمكن أن يقال فى وصف قتال بين قبيلتين من البدو . ولا أرى فى القصائد التى قالها فى سجنه ببلاد الروم إلا أنها نثر مسجوع ؛ وإذا وجدنا من يبالغ فى امتداحها من المؤلفين كالصاحب والثعالبى فهذا برهان جدير على ضعف الفارق بين الكاتب والشاعر .

وقد ولد الشريف الرضى عام ٣٦١ ﻫ — ٩٧٠ م ببغداد ؛ وكان فى الثلاثين من عمره ، لما مات ابن الحجاج ؛ وكان الرضى شاعراً عظيما ، وقد اختار من شعر

---

(١) الإرشاد لياقوت ج ٦ ص ٥٠٠ وما بعدها ؛ وطراز المجالس للخفاجى طبعة مصر ١٨٩٤م ، ج ٢ ص ٨٥ وما بعدها واليتيمة ج ١ ص ٨٠ ؛ وقد ترك أبو العلاء الشاعر الشامى مدينة بغداد فى عام ٤٠٠ ﻫ ، وذلك لأن الرضى طعن فى المتنبى ومدحه أبو العلاء ، فأخرجه الرضى من الغرفة (انظر مقدمة مرجليوث لرسائل أبى العلاء ص ٢٨ ، وقد ألف أبو العلا شرحا كبيراً لأشعار المتنبى سماه كتاب اللامع والعزيزى انظر : Kremer, SWA, 117, S. 69 .

بن الحجاج كتاباً سماه الحسن من شعر الحسين[١] . وكان الشريف الرضى سيّداً كبيراً انحدر من شجرة عظيمة عريقة النسب ، فلم يستطع مخالفة التقاليد والنزول إلى ما نزل إليه ابن الحجاج من إسفاف ومعالجة لنواحى الحياة التى لا تليق بالرضى ؛ فقد كان أبوه نقيباً للعلويين جميعاً ، فلما مات فى سنة ٤٠٠ هـ — ١٠٠٩ م تولى الرضى منصب أبيه وجميع ما كان يتقلده ويُعهد به إليه ، وإن لم يكن الشريف أكبر إخوته . وكانت داره مثال الأبهة فى المظهر ، وقد اتخذ داراً لطلبة العلم سماها دار العلم ، وهيأ لهم فيها ما يحتاجون إليه[٢] . وكان الرضى مشهوراً بأنه لا يقبل من أحد شيئاً ، وقد رفض مرة هدية من وزير[٣] ؛ وكان فخوراً بأنه قاضٍ على من تحت أمره من العلويين ؛ وكان ينسب إلى الإفراط فى معاقبة الجانى منهم ، وله فى ذلك حكايات مشهورة ؛ منها أن امرأة علوية شكت إليه زوجها ، وأنه يقامر بما يتحصل له من حرفة يعانيها ، وأن له أطفالا ، وهو ذو عيلة وحاجة ؛ وشهد لها من حضر بالصدق فيما ذكرت ؛ فاستحضر الرجل ، وأمر به فبُطح ، وأمر بضربه ؛ فما زال يضربه ، والمرأة تنتظر أن يكف ، والأمر يزيد ، حتى بلغ ضربه مائة خشبة ، فصاحت المرأة : وايُتْمَ أولادى ! كيف تكون صورتنا إذا مات ! فكلمها الشريف بكلام فظ ، وقال : ظَنَنْتِ أنكِ تشكينه إلى المعلم[٤] ؟ وكان الشريف الرضى أول عظيم من عظماء العلويين أتى سلاح الفضل لباس

---

(١) ديوان الرضى طبعة بيروت ١٣٠٧ هـ ، ص ٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٣ .

(٣) نفس المصدر ص ٢ ، ٣ .

(٤) ديوان الشريف الرضى ص ٣ و ص ٩٢٩ .

السواد لباس البياض على الرسم العباسى لعمال ورجال الخلافة تاركا الشعار الذى كان يلبسه آ ؤه بكبرياء يوازى ما كانوا يشعرون به من حزن . وهو يشير فى بعض شعره إلى أن حذره راجع إلى شىء من الكآبة والهم التى انطوت عليه نفسه ؛ فهو يقول مثلا[1] :

أروم انتصافى من رجال أباعد   ونفسى أعدى لى من الناس أجمع

ويقول :

إذا لم تكن نفسُ الفتى من صديقه   فلا يحدثن فى خلة الغير مطلبا

ويقول :

وقالوا : تملّل ! إنما العيش نومة   تقضى ، ويمضى طارقُ الهم أجمع
ولو كان نوماً ساكناً لحمدته   ولكنه نوم مروع مُفزَّع

ولم يكن يخرج من فم هذا الرجل النبيل حقيقة كلمة واحدة من الكلمات القبيحة التى يتلفظ بها العامة ، والتى نرى مثلها عند إبراهيم الصابى صاحب ديوان الوسائل وعند الوزير المهلبى ، وعند الوزير ابن عباد . وإذا كان غيره من الشعراء قد استباحوا لأنفسهم فى الذم كل قبيح فإننا لا نجد للشريف الرضى فى باب الهجاء أقوى من ذمه لمغنّ بارد قبيح الوجه ، وهو[2] :

تنفى بمنظره العيون إذا بدا   وتقىء عند غنائه الأسماع

---

(١) نفس المصدر ص ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، وكان الشريف لا ينشد شعره إلا للخلفاء ، حتى قال أعداؤه لبهاء الدولة إنه يتكبر عليه بترك الإنشاد بين يديه (الديوان ص ٩٠٤) . ومما يجب أن يلاحظ من أسباب كآبته أنه ولد لأبيه وهو فى الخامسة والستين من العمر .

(٢) ديوان الرضى ص ٥٠٤ .

. . . .

أشهى الينا من غنائك مسمعاً   زجل الضراغم ينهرن قراع

وإذا كنا نجد رجلا كالشريف الرضى قد كلف نفسه مشقة قراءة ديوان ابن الحجاج وانتخاب أشعاره الخالية من السخف والمجون ، ثم ألف مرثية لهذا الشاعر[1] فإن فى ذلك شرفاً لهذين الرجلين معاً . على أن الرضى كان أكثر ميلا إلى المتنبى ، لأن ابن جنى صاحب الشرح لديوان المتنبى كان أستاذه ؛ وهو يقول الشعر فى كل ما كان يقرض الشعر فيه الشعراء المتمسكون بمذهب القدماء فى ذلك العصر كالتهنئة بالنيروز ، وعيد الفصح ، وبشهر رمضان ، وبانتهاء شهر الصوم ، وبالمهرجان ، وبالتهنئة بمولد بنت أو ولد ، وبمدح الخلفاء والسلاطين والوزراء ، وبرثاء من يموت من العظماء أو من المقربين إليه ، وخصوصاً برثاء الحسين فى عيد وفاته ، وهو يوم عاشوراء . وهو يفتخر بأهل بيته وبالأشراف ، ويشكو الزمان والشيب . وقد شكى الشيب وهو صغير ، كما جرى عرف الشعراء ؛ ولحسن الحظ حلق الشريف مقدم رأسه مرة وفاء بيمين ، فوجد شعراً أبيض ، وكان إذ ذاك فى العشرين من العمر ، فكان هذا على الأقل سبب شخصى يبرر له أن يبدأ الكلام فى الشيب[2] .

---

(١) الديوان ص ٨٦٢ — ٨٦٤ .

(٢) ويروى مثل هذا من أبى فراس الأمير الشاعر الشامى ، وقد لوحظ أنه أخذ ذلك من أبى نواس . أما أبيات أبى فراس فهى : (نقلا عن كتاب : Dvorak : Abu Firas : 1895, S. 141) :

عذيرى من طوالع فى عذارى   ومن رد الشباب المستعار
وثوب كنت ألبسه أنيق   أجرر ذيله بين الجوارى
وما زادت على العشرين سنى   فما عذرى المشيب الى عذارى

ويعتبر الشريف الرضى فى تاريخ الأدب العربى سيد أصحاب الرثاء[1] ، وهو يفعل ذلك متبعاً الطريقة المأثورة تماماً من غير تعرض لشخص المرثى ، وهذا غريب ومما لا يكاد يصدق .

وفى سنة ٣٩٢ هـ — ١٠٠٢ م فقد الشريف الرضى أستاذه وصديقه ابن جنى النحوى المشهور وقد بدأ رثاءه له بالشكوى من الفناء ، وهو يقول[2] :

كأنا قذى يرمى به السيل كلما ... تطاوح ما بين الربى والأمارق

ثم يمضى مكثراً من تساؤله أين ؟ مثل قوله :

فأين الملوك الأقدمون تساندوا ... إلى جذم أحساب كرام المعارق

. . . .

وبعد هذا يذكر ما امتاز به الفقيد من المواهب فيقول :

فمن لأوابى القول يبلو عراكها ... ويحذفها حذف النبال الموارق

إذا صاح فى أعقابها اضطردت له ... توالى بالأعناق طرد الوسايق

وسومها مُلس المتون كأنها ... نزائع من آل الوجيه ولاحق

تفاءل فى أعقابهن وسومه ... بأوقى بقاء من وسوم الأيانق

ومن للمعانى فى الأكمة ألقيت ... إلى باقر غيب المعانى وفاتق

يطاوح فى أثنائها بضميره ... مرير القوى ولاّج تلك المضايق

تسنم أعلى طودها غير عاثر ... وجاوز أنهى شخصها غير زالق

(١) اليتيمة ج ٢ ص ٣٠٨ .

(٢) ديوان الشريف الرضى ص ٥٦٤ .

وهنا ينتهى كلام الشريف الرضى من صفات المرثى ؛ أما بقية القصيدة فهو مما يصلح أن يقال فى كل رثاء .

وزعم أن الشريف الرضى كان يقيم ببغداد عاصمة المملكة ، وكان عالماً هادئاً ، فإنه تجاوز حياة المدن ، ومضى فى شعر الفروسية الخيالى من كلام فى الحرب والصحراء والجمال وكرام الخيل .

على أن الكثير من شعره ثمرة لتجربته الخاصة أحس به إحساساً عميقاً ، وعبر عنه تعبيراً خاصا به ، بحيث نستطيع أن نستشف من وراء هذه الأشعار التى تجرى على نسق واحد أنه تلميذ لابن الحجاج . ومن غرر قصائد الشريف الرضى القصيدة التى ألقاها فى مجلس الخليفة القادر ، حينما جلس يحتفل بالحجيج من أهل خراسان ومطلعها[1] :

لمن الحدوج تهزّهن الأينُق والركب يطفو فى السراب ويغرق
يقطعن أعراض العقيق فَتَشْئِمٌ يحدو ركائبه الغرام ومُعرق
أبقوا أسيراً بعدهم لا يفتدى مما يجن وطالباً لا يلحق
يهفو الولوع به فيطرف طرفه ويزيد جولان الدموع فيطرق

ومن أروع قصائده قوله فى النسيب[2] بامرأة جميلة فى قافلة تسير ليلا :

طلعت والهلال مشتمل سابغ الأذيال والأزر
من خصاصات النبيط ، وقد غرّدَ الحادى على أثر

---

(١) ديوان الشريف الرضى ص ٥٤١ .

(٢) نفس المصدر المتقدم ص ٣٩٤ .

ورقاب القـــــوم مائلة　　من بقايا نشـوة السهر

فاستقاموا فى ر الهم　　يتبعون الضــوء بالنظر

فامترينا ، ثم قلت لهم :　　ليس هـذا مطلع القمر

وهكذا نجد الصنوبرى والمتنبى وابن الحجاج والشريف الرضى يقفون جنباً لجنب فى القرن الرابع الهجرى ، وكل واحد منهم يشبه فى الناحية التى نبـغ فيها قمة تشرف على كل القرون التالية للأدب العربى .

(تم الجزء الأول ويليه الجزء الثانى)